سعدي يوسف

الأعمال الشعرية

الجزء الرابع

سعدي يوسف

الأعمال الشعرية

الجزء الرابع

حياة صريحة

منشورات الجمل

ولد **سعدي يوسف** في البصرة عام ١٩٣٤. تخرّج من دار المعلمين ببغداد سنة ١٩٥٤. عمل في الصحافة وتنقل بين عدة بلدان ويقيم اليوم بلندن. نشر العديد من الترجمات الشعرية والنثرية، وكتب القصة والرواية، ترجمت أشعاره إلى العديد من اللغات ونال جوائز أدبية في البلدان العربية والأوروبية. من أعماله وترجماته: **القرصان**، شعر (١٩٥٣)؛ **أغنيات ليست للآخرين**، شعر (١٩٥٥)؛ **قصائد مرئية**، شعر (١٩٦٥)؛ **بعيداً عن السماء الأولى**، شعر (١٩٧٠)؛ **نهايات الشمال الأفريقي**، شعر (١٩٧٢)؛ **الأخضر بن يوسف ومشاغله**، شعر (١٩٧٢)، **والت وايتمان: أوراق العشب**، ترجمة (١٩٧٦)؛ **تحت جدارية فائق حسن**، شعر (١٩٧٤)؛ **قصائد أقل صمتاً**، شعر (١٩٧٩)؛ **خذ وردة الثلج، خذ القيروانية**، شعر (١٩٨٧)؛ **قصائد باريس، قصائد إيثاكا**، شعر (١٩٩٢)؛ **كافافي: وداعاً للاسكندرية التي تفقدها**، ترجمة (١٩٧٩)؛ **يانيس ريتسوس: إيماءات**، ترجمة (١٩٧٩)؛ **لوركا: الأغاني وما بعدها**، ترجمة (١٩٨١)؛ **فاسكو بوبا: شجرة ليمون في القلب**، ترجمة (١٩٨١)؛ **غونار أكيلف: ديوان الأمير وحكاية فاطمة**، ترجمة (١٩٨١)؛ **أونغاريتي: سماء صافية**، ترجمة (١٩٨١)؛ **هولان: قصائد**، ترجمة (١٩٨١)؛ **هنري ميللر: رامبو وزمن القتلة**، ترجمة (١٩٧٩)؛ **نغوجي واثيونغو: تويجات الدم**، ترجمة (١٩٨٢)؛ **ديفيد معلوف: حياة متخيلة**، ترجمة (١٩٩٨)؛ **وولي سوينكا: المفسّرون**، ترجمة (١٩٨٦).

سعدي يوسف: **الأعمال الشعرية، الجزء الرابع: حياة صريحة**
الطبعة الأولى
خطوط الغلاف: الفنان علي عاصي

تلفون وفاكس: ٠٠٩٦١ ١ ٣٥٣٣٠٤
ص.ب: ١١٣/٥٤٣٨ ـ بيروت ـ لبنان

Postfach 1127 . 71687 Freiberg a. N. - Germany
WebSite: www.al-kamel.de
E-Mail: alkamel.verlag@gmail.com

ايروتيكا

(١٩٩٤)



امرأة صامتة

في فراش البارحةْ
حيث كان الشرشف الكتّانُ مكويّاً
وكان الليل مطويّاً على خضرته في الركنِ
أو حمرتهِ في ما تبقّى من نبيذ الريفِ. . .
كان الصمت يعلو
وتموجُ الأرضُ مستنجدةً بالشرشفِ الكتّانِ:
إِحملْ جسدينِ
اتَّسعِ، الليلةَ، شيئاً. . .
لا تضقْ بالموجِ
بالموجةِ في الذروةِ،
ولْتنْدَعِكِ الأزهارُ في أطرافكَ. . .
الليلةَ، يعلو الصمتُ
والماءُ يرى منبعَهُ ـ السرَّ، مَصَبّاً. . .
. . . .
. . . .
أنتِ في الموجة تمضينَ

تئنّينَ عميقاً، داخلَ الجِلدِ، وتمضينَ
وتعطين زهورَ الشرشف الكتّانِ
ما تعطينَ:
قطْراتِ الحرير. . .

١٩٩٤/٧/١٢

EROTICA

بالخمسِ تلتمِّينَ
تلتمسين أول رعشةٍ في تمرةِ الفحلِ،
الأصابعُ
كلما لانت تجسَّدَ غصنُ ريحانٍ
تُدغدغه طراوتُها.
حليبُ الغصنِ
أولُ قطرةٍ منه استُدِرَّتْ بالأصابعِ
واستدارت
فاحت الأعشابُ في الدلتا التي تتقاسم النهرينِ
والنورُ الذي في الراحة اليمنى يفوحُ
وثوبُها، متكوِّماً، في الركنِ...
كان الغصن ينهض، فارعاً، بين الأصابعِ
والبخور يفوح
والأفعى تفحُّ،
وذلك الثوب الذي في الركنِ، صار اثنين...

١٢/٧/١٩٩٤

عانة - I -

أحبُّ هذا العشبَ
هذي الشقرةَ. . . المخملَ إذ أَفْرُقُه خيطاً فخيطاً
وأشمُّ البُنَّ فيهِ
أوّلَ العنقودِ
والقنَّبَ منقوعاً، ووردَ اللحمِ، فيهِ
عندما أُسند رأسي بين ساقيكِ
يكون العشبُ لي مستنَد الكونِ،
وإذ يبلغه غصني
يدور الغصنُ في العشبِ. . .
طريُّ عشبُكِ الآنَ:
التماعُ البَرَدِ
الزئبقِ
والمنبعِ، فيهِ. . .

١٩٩٤/٧/١٥

عانة - II -

مرجٌ أسودُ
سهبٌ مترامي الأطراف
النبعُ به خافٍ
والدلوُ يخاف.
مرجٌ أسودُ
والدنيا بيضاءُ. . .
السّرَّةُ خافيةٌ، زرٌّ أرهفُ
والمرمرُ ملتمعٌ
ووسادتها تحت الردفين ضفاف. . .
. . . .
. . . .
. . . .
سأحاول أن أتلمسَ في العتمةِ
بيتَ الأصداف.

١٥/٧/١٩٩٤

عانة - III -

قبل عشرين دقيقة
غادرتْ حمّامَها التركيَّ. . .
كانت ترتبي، كامنةً، ثمتَ
حتى صاغها الحمّامُ
ملساءَ
كأنّ الزغب استقطر لون الزبدةِ. . .
الكوثرُ
رطبٌ
ناعمٌ
تزلق فيه راحتي. . .
منفرجاً كان
وبين الضفة الملساء، والأخرى
سماءٌ سلسبيل
هكذا
يَبْرُقُ، في الليل، السبيلْ.

١٦/ ٧/ ١٩٩٤

طيور بحريّة

الحصا يترقرق في الماءِ.
عاريةً كنتِ
ممتدةً أنتِ، والبحر...
...   ...
...   ...
...   ...
في البعد، يمرق طيرٌ
وفي راحتي يتراجفُ نهدُكِ
منتظراً أن يطير...

١٩٩٤/٧/١٦

في حانة جاز

لأكاد أرى عبر كريستال الجِيدِ
نبيذَكِ، وهو يسيل
من الكأس
إلى شفتيك
إلى أن يترقرق ورداً في خدَّيك. . .
الموسيقيةُ عند بيانو البار
تُرددُ أغنيةً،
وأنا أثمل بالموسيقى
من عينيك. . .

١٩٩٤/٧/١٧

عند النافذة

شَعركِ مبتلٌّ برذاذ الماء الدافئ
نهداك يرفّان صغيرينِ
ومن المرآةِ إلى عمق المرآةِ تسيرين
منعَّمةً بصباحكِ،
عاريةً. . .
وتقولين: سأترك شَعري
يتنسَّم وحده
يتنشّف وحده. . .
. . .   . . .
. . .   . . .
. . .   . . .
تقفين قبالة نافذةٍ مفتوحةْ
تلتفتين قليلا
تبتسمين قليلا
وتعودين إلى شَعرك عند النافذة المفتوحةْ
وأنا أتملّى صورتَكِ الخلفية
مشدوداً بالكرسيّ. . .

١٧/ ٧/ ١٩٩٤

Camping

الخيمةُ
خضراءُ، يظللها السَّروُ
وثمّتَ جذعُ صنوبرةٍ
علّقتِ به فانوسي
والمرآةَ
وثوبَ سباحتِكِ. . .
كنتِ خرجتِ، الآن، من البحرِ
حصيرُ البامبو يبتلُّ بمائكِ
لكنكِ ما زلتِ تريدين استنباط الماء. . .
. . .   . . .
. . .   . . .
. . .   . . .
سننامُ، إذاً. . .

١٩٩٤/٧/١٧

زَبَدٌ

هذا الزبَدُ الطافحُ
في سُبّابتيَ اليمنى،
في منبِتِ ساقيكِ. . .
الزبَدُ اللامعُ في زغَبِ الدلتا،
هذا الماءُ المتكثف مثل نبيذٍ أبيضَ مكتنزٍ منذ سنينٍ وسنين. . .
سيظل هنا
في هذا الركنِ من الغرفةِ
ملتصقاً بالشرشف
ملتصقاً بهواء الغرفةِ
ملتصقاً باللحظة حين تغيبين. . .

١٧/ ٧/ ١٩٩٤

امتصاص

كلُّ هذي الاستدارات. . . ولا تدرين ماذا تفعلين
بالفم المضمومِ؟
كلُّ الاستداراتِ:
محيطِ الخصرِ
كوبِ النهدِ
رسمِ العينِ
والردفينِ. . .
كلُّ الاستدارات. . . ولا تدرين ماذا تفعلين
بالفم المضمومِ؟
. . . .
. . . .
. . . .
لو كوَّرتِه، وامتصَّني حتى ابتداءِ الماءِ
أو حتّى انتهاءِ الماءِ،
هل أسألُ عمّا تفعلين
بالفم المضمومِ؟
هل أسألُ عمّا تنهلين؟

١٧/٧/١٩٩٤

فودكا

في النار المثلوجة
في اللهب المتجمدِ
ندخل عريانين. . .
لنطوي الأغنيةَ الأولى
في البرقِ
فندخلَ كفَ الساحرةِ:
الليلُ يمدُّ بساطَ البدوِ،
وها نحن أولاء على أغصانٍ وطيورٍ نتمرَّغ. . .
وعلى نهديك ارتسمتْ أغصانٌ وطيورٌ.

١٨/٧/١٩٩٤

استعادة

في الغرفةِ،
أجلسُ وحدي، مرتخياً، قرب النافذةِ
الشمسُ تواجهني
شمسُ الصيف
شمسُ الهاجرةِ. . .
الألوانُ مشتتةٌ في موشور الشمس،
وذراعي تؤلمني. . .
فلأغمض عينيّ المتعبتين
عينٌ مُسْبلةٌ بالوسطى
والأخرى بالإبهام. . .
عميقاً سوف أنام. . . سريري غيمة أمسِ
وغيضةُ أمسِ
وصرخةُ أمسِ. . .
سيرنّ الهاتفُ،
لن أرفعَهُ. . .
أعرفُ أنكِ أنتِ. . .
. . . .

. . . .

. . . .

سأطبقُ جنفيَّ على ذكر صوتكِ،
ذاك المرتعشِ، المبحوحِ، بغيمة أمسِ
سأحفظُ صرختَكِ المكتومة
حين عضضتِ ذراعي، هائجةً، أمس. . .

١٨/٧/١٩٩٤

ابتداء

أُحبُّ أن أطيلَ عبر العنقِ القُبلةْ
أُزيحُ شَعركِ القصيرَ عن أُذنكِ
أنزعُ القرطَ الذي أمسِ اشتريتُه من حضنِ افريقيّةٍ
في مدخل المترو. . .
أذوقُ شحمةَ الأُذُنِ
وأمضي هابطاً في العنقِ
أمضي هابطاً في العنقِ
أمضي هابطاً
أمضي. . .
وفي الهوّةِ
في العمقِ
تماماً، حينما أوشكُ أن أغرقَ. . .
تأتي اللفتةُ
الضحكةُ. . .
تلتفّين بي
والعنقُ المتلَعُ يسترخي على موج العناق.

١٨/ ٧/ ١٩٩٤

تلوين

ضوءٌ أخضر يهبط، منحرفاً، من ركن الغرفةِ
الضوء خفيفٌ
لكنّ أعالي الصوفا
والكرسيّ
والمنفضةَ البلّور:
تتلون بالأخضر
وتظل الغرفة في عتمتها...
....
....
....
رائحةٌ من نعناعٍ برّيّ،
رائحةٌ من شَعرِكِ، منتشراً، في بيدره الشرشفِ
والضوء الأخضر
بعد أعالي الصوفا
بعد الكرسيّ
بعد المنفضة البلّور

يبلغ نِعمتَكِ العاريةَ
النائحةَ. . .
الضوءُ الأخضرُ لوَّنَ ردفيكِ. . . فقط.

١٩٩٤/٧/١٨

السؤال

لا ترضَينَ بما يرضَينَ به.
مثلاً:
أنتِ تقولين لماذا يخترقُ الرجلُ المرأةْ؟
ولماذا لا تخترق الرجلَ المرأةْ؟
حسناً...
لكني أعرف أنكِ حتى لو ضاجعتِ كما تهوَين
ستقولين: وماذا؟
كلُّ الأوضاع سواءٌ
كلُّ الكلمات لماذا...

١٩/٧/١٩٩٤

الهدوء

هدأت شفتي
واستكنَّ قضيب النحاس
ذابلاً
دامعاً،
أنتِ منثورةُ الشَّعرِ
لاهثةٌ
لا تزالين في وقدة اللمسِ
تنتظرين قضيبَ النحاسِ
الذي يرتخي
ذابلاً
دامعاً. . .
. . . .
. . . .
. . . .
هل ندخِّنُ؟
ربّما أوقدَ العشبُ نارَ النحاس.

١٩٩٤/٧/٢٠

جرفٌ مرجانيّ

أنا وأنتِ. . .

. . .   . . .

. . .   . . .

. . .   . . .

كانت الأسماك تمضي، طلقةً، في شاطئ المرجان

كان الضوء في الأعماقِ

يرزقُّ

ويخضرّ

ويحمرّ

ويصفرّ

ويَسْوَدُّ

وكانت غابة المرجانِ

أزهاراً

وأصدافاً

وأشجاراً

تماثيلَ عصورٍ غرقتْ

مطعمَ أسماكٍ تغنِّي عنده الأسماك.

أنا وأنتِ. . .

. . . .

. . . .

. . . .

عندما تضمُّنا الخيمةُ

يأتينا حفيفُ السروِ والبحرِ

ويأتي شاطئ المرجان،

تأتين. . .

مندّاةً

مُصَفّاةً

هنا، في خيمتي. . من شاطئ المرجان تأتي السمكةْ!

٢٠/٧/١٩٩٤

فارسة

تحبِّين الخبب
مائلةً بصدركِ على الجواد
تضغطين بنهديكِ
بفخذيكِ. . .
لاهثةً
متصببةَ العطر. . .
. . .   . . .
. . .   . . .
. . .   . . .
إلى أين تمضين أيتها الفارسة
بجوادكِ المنهَك؟

٢٠/٧/١٩٩٤

الثوب

في الشقةِ
حافيةً تمشين
عاريةً. . .
تنتقلين من الغرفة نحو الشرفة
ومن الشرفة نحو الغرفة. . .
لكنكِ إذ تنتقلين من الغرفةِ نحو الغرفةِ
تتخذين هوائي ثوباً
وترفِّين. . .
. . . .
. . . .
. . . .
ما أطولَ ثوبَكِ هذا!

٢٠/٧/١٩٩٤

ظهيرة

الآنَ،
وقد أسدلتُ ستائريَ الخشبَ
(الشمسُ مروِّعةٌ)
أنا أشتاق إليكِ. . .
منفضتي امتلأت من مِزَقِ الأوراقِ
ومن ضربات الجازِ
ومن سدّادات البيرةِ. . .
أشتاقُ إليكِ
لا لحديثكِ
لا للثوب المتغضنِ دوماً من جهةٍ
لا لتفاهات صديقاتكِ
لا لمتاعبكِ العمليةِ. . .
. . . .
. . . .
. . . .
أشتاقُ إليكِ
إليكِ. . .
فقط!

٢٠/ ٧/ ١٩٩٤

كمّاشة

أناملُكِ الطرية
أناملكِ السائلة التي تكاد تندلق على الطاولة
كلما أمسكت بكأس النبيذ. . .
أناملكِ التي يتلألأ فيها النبيذ كما يتلألأ في الكريستال
أناملك التي لا يكاد يُلامسها شيء
أناملك:
حليبُ الوردةِ
وغصينِ اللوزِ
. . . .
. . . .
. . . .
أناملُكِ هذه
أيُّ نُسْغٍ أوّلَ، تدفّقَ، بغتةً، فيها
كي تُطبقَ على عضوي
كمّاشةً من الفضة؟

٢٠/ ٧/ ١٩٩٤

القطار

صورتُكِ
وأنتِ في محطة الشمال
مع حقيبة يدٍ
وشَعرٍ يتطاير مع الريح
بينما ساعة المحطة تتجمّد. . .
صورتُكِ هذه:

لا تشبهكِ.

. . . .

. . . .

. . . .

أنا أحتفظ، سرّاً، بالفيلم كله
بكل ما فعلناه
في القطار
بين أمستردام وباريس. . .

٢١/٧/١٩٩٤

سوء تفاهُم

لم تكوني البارحةْ
امرأتي. . .
كان هواء البار مضغوطاً
كما لو أننا في علبة الكولا. . .
لقد حاولتُ أن أصغي إلى أغنية الجاز
وحاولتُ. . .
ولكنكِ لم تستمتعي حتى بإيذائي
أو بالخمرة الحمراء
أو باللحم شبه النيِّئِ
. . . .
. . . .
. . . .
البارُ طوى أعلامَهُ
وانقلبتْ، وهْناً، كراسيه
وغادرناه،
لكنّ الهواء
ظلَّ، حتى في اقتراب الفجر، مضغوطاً
كما لو أننا في علبة الكولا. . .

١٩٩٤/٧/٢١

الماشطة

تستمتع إحدى البنتين بشَعر الأخرى
تتحسسهُ
وتُمسِّدُهُ
وتُطرِّي الخصلاتِ المنعقداتِ
تُمشِّطُها
وتُسَوِّي الخيطانَ الذهبيةَ
خيطاً
خيطاً. . .
أحياناً تتنهّدُ
وأحياناً تنظر، صامتةً، في عيني الأخرى. . .
تبتسم الأخرى
تُتْلعُ عنقاً. . . ثم تميل به نحو أناملِ ماشطةٍ
كانت تقتسم الليل وإياها
تحت غطاءٍ واحد. . .

١٩٩٤/٧/٢١

حيادٌ صعب

سأقولُ إذا جئتِ مساءً: أهلاً. . .
سأقوم إلى البار
أمزجُ كأساً لكِ
كأساً آخرَ لي،
وسأختار الكرسيَّ بعيداً. . .
لن ألمس حتى أطرافَ أريكتكِ. . .
لكِ أن تهدأ أنفاسُكِ
أن تمتلكي دنياكِ
ووحدتكِ. . .
لكِ أن تحتفظي بالكأس طويلاً، قرب المنفضة الملأى بالأَعقابِ،
. . . .
. . . .
. . . .
الكرسيُّ بعيدٌ
والنهرُ بعيدٌ،
وأريكتُكِ الجسر. . .

١٩٩٤/٧/٢١

مطعم صينيّ

في المرآة الضخمةِ
في عمق المطعمِ
تبدو أشجارٌ وتنانينٌ أخرى
وموائد أخرى.
وصواني الصين تدورُ فطائرُها
والرزُّ الكانتونيّ
وخيوطُ اللحمِ...
....
....
....
وفي المرآة الضخمةِ
يبدو رجلٌ وامرأةٌ يبتسمان
قدحُ الساكي في يدها
قدحُ الساكي في يدهِ...
كان يحدِّق في عمق القدحِ الخزفِ...
المرأةُ تعرف ما يفعلُ

تعرف أن امرأةً ما، عاريةً، ترقص في الأعماق.

. . . .

. . . .

. . . .

أتكون سواها؟

١٩٩٤/٧/٢١

ثالوث

المسدّس تحت الوسادة
حين دخلتِ الغرفةَ البحرية
شفيفة الثوبِ
متضوِّعةً
وشَعركِ مروحةُ كُحلٍ وياسمين
كانت عيناك تطرُفان. . .
المسدس تحت الوسادة.

الموجةُ تندفع
والفراش تتاطير أوراقه كالريش
الشرشف
والأثواب
والوسادة.

الآن،
نحن ثلاثة في صراحة العري:

أنتِ
أنا
والمسدس.

١٩٩٤/٧/٢١

الغرفة

هذي الغرفةُ أعرفُها
كانت لي:
طاولتي حيث كتبتُ قليلاً وأنا أنظر عبر الشّبّاك،
لوحاتُ السيدة الخمس
ودولابُ ملابسيَ،
النبتةُ في ركنٍ تغمره الشمسُ دقائقَ
والإستيريو...
والألواحُ اللائي جئتُ بها واحدةً واحدةً لأُثَبِّتها فتكونَ سريري.
هذه الغرفة كانت لي
كانت لكِ أيضاً...
أتذكَّرُ كيف أقمنا فيها زاويةً للبار
وكيف ضحكنا حين جلسنا عند البار...
وكيف تتبَّعنا خيط بخورٍ يَصَّاعدُ حتى يتلاشى عند المصباح الأحمر...

هذي الغرفةُ أعرفُها...
فيها قبّلتُكِ أول مرةْ

فيها انسكرت إحدى الألواح
وفيها كنت أدغدغُ إِبطَكِ كلَّ صباح.

. . . .
. . . .
. . . .

أما الآن، فلم تعد الغرفة لي
أنتِ رحلتِ إلى عاصمةٍ أخرى،
وأنا... لم أرحلْ بعدُ...
ولكنْ، ماذا أتنفّسُ في الغرفة؟

. . . .
. . . .
. . . .

هذي الغرفةُ لا أعرفُها.

٢١/٧/١٩٩٤

في الحرب

تهدر المدفعيةُ. . .
ها نحن في شقّة البحرِ
نختضّ
والنبتُ يختضّ
والآنيةْ.
غير أنكِ أومأتِ نحو الفراش المكوَّمِ في الزاويةْ.
بغتةً. . . في انفجار القذيفة قرب البنايةْ،
تسَّاقَطُ الأسطواناتُ
والكتبُ الماركسيةُ
واللوحةُ المشتراةُ حديثاً
وصورتُكِ العاريةْ.

٢٢/ ٧/ ١٩٩٤

ناحلة

من أين أُمسكُ بكِ؟
لا النهدُ يملأ راحتي
ولا الزند.
وفخذاكِ، فخذا الغزالة، هل تعرفان غير الجري؟
حين أطوِّقُ خصركِ
ترتسم أضلاعٌ على أناملي.
لكنك، حين نفعل الحب، ترفرفين
تطيرين
وتهبطين
ممسكةً جيداً بالعُود. . .

١٩٩٤/٧/٢٢

عطلة الأسبوع

في محطةٍ لمترو الضواحي
كنت أنتظرك منذ الصباح. . .
القطارات تتقاطع
المسافرون يتقاطعون
كذلك بائعو المخدرات وكلاب الشرطة.
إنه يوم السبت
هكذا، سنُمضي معاً، عطلةَ الأسبوع
سوف نثمل
ونغنِّي
ونحبّ. . .
. . . .
. . . .
لم تجيئي في الموعد.
ضغطتِ زرَّ الباب في السادسة مساءً.
. . . .
. . . .
. . . .

في السادسة مساءً بدأ الصباح
كنا عائدينِ، معاً، من محطة المترو
وفي شعركِ بُقيا من طراوة الفجر.

٢٢/٧/١٩٩٤

كتبت القصائد بدمشق
بين ١٢ و٢٢ تموز ١٩٩٤

قصائد ساذجة

إلى محمود درويش

ليست الخيبةُ أن تشعر بالخيبةِ.
فالنهر ـ كما تعرف ـ لا يعني طريقَ المأدُبَةْ
إنما الخيبةُ في أن ينشف النهرُ
فيمسي مَسْرباً للعربةْ.

●●

نحن مُذ جئنا إلى الكونِ
أردنا صورةً أخرى
وقُلنا: الناسُ أطفالٌ
وفينا لثغة الطفلِ
فما أقربَ هذا الوردَ...
ما أقرب تلك الوجنةَ الملتهبةْ!

●●

باليد اليسرى تساءلْنا.
وباليمنى مضينا نكشف الرملَ عن الماءِ
فهل كان سراباً ما كشفناه
وهل كنا ضحايا التجربةْ؟

●●

ربما لاحت لنا في غشية التهليل، إيثاكا
فصدَّقْنا بما أنشدَنا الإغريقُ
لكنك تدري أيَّ ميناءٍ بلغناهُ
وأيَّ الشجراتِ ارتسمتْ في العقبةْ!

عمّان، ١٢/ ٢/ ١٩٩٦

إلى فوزي كريم

كنتَ أميراً بعصاك
ولحيتك
وبساعة جيبكَ. . .
كنتَ تُراهنُ، مبتسماً: إنك سوف تغيِّرُ هذا الكابوس
بعصاك
ولحيتك
وبساعة جيبكَ. . .
. . . .
. . . .
أنت تغنِّي في مأدبُة الليل
ـ وثمَّت نخلٌ، وبقايا سمكٍ، وقناديل ـ
أكنتَ، وحيداً، توقد نارَكَ
في مَذْأبة الليلِ؟

● ●

الآن
وأنت تتمتمُ
و«القلبُ المجروحُ» يتمتمُ

ـ أحياناً في مستشفاك بلندنَ ـ
أدركُ أن عصاك
ولحيتك
والساعة في جيبك
كانت أزياءك في المسرح
حتى قبل بداية ذاك الفصل الأسود.
حتى قبل نهاية عرس النمل.

عمّان، ١٢/ ٢/ ١٩٩٦

إلى أمجد ناصر

قصّاصو الأثر
كلاب الحويطات (أم هم النعيمات؟)
وعودة بن تاية، أيضاً
لن يقتفوا خطاك. . .
أوّلاً، لأنّ بينك وبينهم أكثر من بحر.
وثانياً، لأنهم لا يرتجون منك خيراً.
(لا خيل عندك تهديها ولا مالُ)
فلتظلَّ، إذاً:
الآبق.
اكتبْ: سُرَّ مَن رآكِ.
اكتبْ ما لا يُفْهَمُ.

● ●

ولكنْ،
انتبهْ. . .
إن لندن ملأى بالكلاب!

١٣/٢/١٩٩٦

إلى حيدر صالح

هذا الجسدُ
هذا المتدفقُ مثل إله إغريقيّ
ـ هل تذكر طفليك؟ ـ
هذا المتألقُ في أطلال الدامور
ـ هل تذكر أمطار سلالمها؟ ـ
هذا المتأنقُ حتى وهو ينوء بصفصافته نحو الدور الرابع
ـ هل تذكر في الفاكهاني شقّة قاسم؟ ـ
هذا الجسدُ
كيد تداعى؟
كيف تلاشى في أبخرة الحانات
وفي أنفاق المترو؟
كيف تبدَّدَ، حتى بين أنامل عبد القادرِ، في باريس؟
كيف تبدَّدَ، في هول فُجاءته، حتى كدنا ننسى
أنّ لحيدر صالح
لطخته البيضاء على هذا العالم؟

● ●

أتكون، وأنت العملاق،
ذبيحَ الشِّعر؟

●●

أتكون حقيقتَنا؟

عمّان، ١٩٩٦/٢/١٢

إلى وليد خز ندار

لا الياسمينة
ولا زوّار الليل الذي نجهله،
لا السياج
ولا ثريّات الميموزا في منعطف المنزه الأول
حتى ولا الصبّار الذي تريده ناعماً. . . .
ـ لن أذكر غزّة ـ
إذاً. . .
كيف نلمس هذا التمساح؟
كيف نتلمس خطوةً واحدةً. . .
خطوةً واحدةً، حسبُ؟
إن كانت الياسمينة
وزوّار الليل
والسياج
والميموزا
والصبّار الذي تريده ناعماً،
إن كانت هذه، كلها، صورةً. . .
(أو دلالةً كما يقول بلاغيّونا المحْدثون)
فيا لَفداحة المسعى!

عمّان، ١٣/ ٢/ ١٩٩٦

إلى عبد اللطيف اللعبي

ستظلُّ الضواحي الغريبةُ أوطانَنا
سنظلّ بها:
فهي تعرفنا أوّلاً،
ثم أنّا نكون بها، مثل ما سمكُ الحوض في الحوض:
حانتُنا
موقف الحافلةْ
وسلالم مترو الضواحي
وشقّة H.L.M
وكل تفاصيل يومٍ بلا مفصلٍ...

● ●

ربما كان عبد اللطيف سعيداً برمل الرباط
وأسوارها.
ربما أوقد الأصدقاءُ القدامى، على البحر، نيرانَهم
ربما وجد «الريفَ» مستنفَراً مثل ما كان.
لكنّ ما لم يجدْ
كان أكثر ممّا يجدْ...

● ●

حسناً،
فلنقُلْ إِننا العائدون
إلى أرض أوطاننا
في الضواحي. . .
في الضواحي البعيدة عن أرض أوطاننا.

عمّان، ١٣/ ٢/ ١٩٩٦

إلى حسب الشيخ جعفر

كيف مرَّت بكَ السنواتُ؟
الموائدُ تُقفرُ، والنَّخلاتُ التي كنتَ تجلسُ
عند جذوع مساءاتها، لم تَعُدْ جوقةً من
عصافيرَ. . .
حينَ القصائدُ كانت مدوَّرَةً
والكؤوس التي بين عينيك كانت تدور. . .
فهل فَزَّ عن غصنه الطيرُ؟
هل غارتِ القارةُ السابعةْ؟

● ●

سوف أبحثُ في بيت ليلي عن الطفلِ
أبحثُ عن نخلة الله
عن ساكنٍ شرقَ برلينَ. . .

عن روث جاموسةٍ، يتجمَّرُ، ليلاً، بِهَور السلامِ. . . .
سلامٌ عليك

على الكلمات التي لا تغادر، مذعورةً، شفتيكَ
اللتين. . .

● ●

كيف مرَّتْ بكَ السنواتُ؟
انتبهْ!
واتّرِكْ فرصةً للحياة. . .

عمّان، ١٤/ ٢/ ١٩٩٦

إلى بشير قهوجي

ليست القيروانُ القباءَ الذي ترتدي
والفضاءَ الذي لا ترود. . .
قد اختلطتْ في دخانِ المساءِ الحدودْ.
أنتَ في القيروان
تحاولُ ناراً هلاليةً
وكراديسَ من أُرجوان.

●●

أتذكَّرُ بيتَكَ:
تلكَ السَّطيحةَ
والبئرَ،
والمطعمَ المتقشفَ. . .
أذكُرُ ديوانَ ريلكه
وأوراقَكَ المتغضنةَ الخطّ في الشمسِ،
. . . .
. . . .
. . . .

هل كنتَ تنوي الرحيلْ؟

● ●

اتَّئِدْ يا صديقي
ولتواصلْ خِصامَكَ بين الهلاليّ والبحرِ
وَلْتَفْرِطِ السنبلةْ!

عمّان، ١٤/ ٢/ ١٩٩٦

إلى هاشم شفيق

ستكون «بَلَدْ»
يوماً، عاصمةَ الدنيا . . .
وستبني أنت
ـ أنت الذاهل في مدن الغيتو ـ
ساحاتٍ
وبساتينَ
وأكواخاً من سعفٍ وجذوعٍ
وستسكنها
لتكون، ولو نبتتْ في أوراق الدفتر،
عاصمةَ الدنيا .

. . . .
. . . .
. . . .
تتذكرُ كيف بنى «بدرٌ» كاتدرائيتَهُ . . .

● ●

ها أنت استكملتَ العدَّةْ
وتعلَّمتَ الحِرفَ اليدويةَ، والترحال

وعرفتَ نساءً

وحروباً

وقرأتَ بعيني قطٍّ ديوانَ العُمّال

الآنَ:

ستفتتح الدربَ الأول.

● ●

من يبني عاصمةً للشاعر

غير الشاعر

عمّان، ١٤/ ٢/١٩٩٦

إلى زاهر الغافري

سلالة المحاربين
سلالة محمد بن ناصر الغافري
الذي:
«عقدوا له الإمامة، وضربت مدافع قلعة نزوى،
ونادى له المنادي بالإمامة والعز، والأمان لكل قبيلة تريد المواجهة
من يمنٍ ونزار، ومن بدوٍ وحضر».
سلالة المحاربين هذه
جاءت من «سرور»
بهذا الفتى الذاهل
زاهر الغافريّ...

••

أنت لم تَعُدِ الفتى
لكنك ما زلتَ ذاهلاً.
احترسْ من القصيدة...

••

ربما في جُعة الفجر
أو دخان القنّب

أو محاولة السينما
أو القفز بين العواصم:
مرّاكش
نيويورك
القاهرة
مسقط
ومركب الهند
سوف تتفادى الارتطام.
لكن القصيدة تطاردك...

عمّان، ١٤/ ٢/ ١٩٩٦

النّاسِكُ

ـ ١ ـ

يرحلُ الشعراء
واحداً، بعد آخَرَ، في آخِرِ الليلِ
لم يحملوا معهم غيرَ زادِ القفيرِ
وتذكرةٍ لم تُؤَرَّخْ. . .
أقولُ لهم: لا تَحُثُّوا الخُطى
انتظِروا ساعةً حَسْبُ، يا إخوتي. . .
نحنُ في آخرِ الليلِ،
لكنّهم يرحلون. . .
. . . .
. . . .
. . . .

السّماءُ ليستْ مُدْلَهِمَّةً. الغيومُ فقط هي التي تهبطُ عميقاً. سُوداً تبدو ورماديةً. الفجرُ مُلْتَبِسٌ، لكنّهُ الفجرُ. أقولُ لغيمةٍ تتردَّدُ بيضاءَ في زاويةٍ من السَّماءِ: أنت لي، أيتها المتهلِّلةُ. كنتُ انتظرتُكِ طَوالَ الليلِ، بينما أنتِ تحتَ الوسادةِ، تجذبينَ خُصُلاتي وتُمسِّدينَ. إذاً،

ستظلِّين معي. وحيثما تكوني أكُنْ. سأقولُ: إن السَّماءَ صافيةٌ. . .
سأقولُ: النهارُ أنتِ.
صباحَ الخيرِ أيها الفتى!

ـ ٢ ـ

يرحلُ الشعراء
واحداً، بعد آخرَ، في آخرِ السطرِ. . .
كيف انتهيتُم إلى النُّقطةِ الصِّفرِ؟
كيف انتهيتُمْ؟
وأين تركتُمْ قناديلَنا، ورؤوسَ الجبالِ؟
ألم تنظروا، لحظةً، في عيونِ القططْ؟
نحن في آخِرِ السَّطْرِ
لكنهم ترحلون. . .
. . . .
. . . .
. . . .

هذا الجبلُ الذي لا يُحَدُّ. هذا الجبلُ الذي نَعرفُ. سوف ألتقطُ في قُنّتهِ ذَرْقَ النُّسورِ، والعسلَ.
الأزهارُ بلا أسماء. كذلك خيوطُ النّبعِ، والذئابُ التي تستافُ روائحَ القُرى. ثَمّتَ الممرّاتُ: دروبُ الماعزِ والمهرِّبين. الجنودُ ليسوا

ضيوفَ الجبلِ. قبرُ الوليِّ يَنْعَمُ بخُضرةِ شرائطِهِ. ومن بيوتٍ نجهلُها تأتي نسوةٌ وأطفالٌ، بالخبزِ والشموعِ.
صباحَ الخيرِ، أيها الجبلُ!

ـ ٣ ـ

يرحلُ الشعراء
واحداً، بعدَ آخرَ، في آخِرِ الغصنِ. . .
لا!
كيف تَمضُونَ عني؟
ألم نجتمعْ، مَرّةً، حولَ مائدةِ النُّسْغِ؟
كنا نقولُ: لنا رعشةُ الماءِ
كنا نقولُ: العروقُ لنا، والخريفُ الذهبْ
ونقولُ: لنا أوّلُ الغصنِ.
لكنكم ترحلون. . .
. . . .
. . . .
. . . .

مباركةٌ أنتِ أيتها الشجرةُ. مباركةٌ أيتها المزهِرةُ بريشِ الطاووسِ، وعُرْفِ الهُدهدِ. مباركةٌ جذورُكِ حيثُ يَبِيضُ النّملُ. القُنفذُ يَطَّوَّفُ بكِ سارياً مع النجمِ. ومن أغصانكِ تَصِرُّ الجنادبُ. هكذا في الليلِ

الإِثْمَدِ تَسْتَروحينَ الفردوسَ. وفي النهارِ الذّهَبِ تستَقْطرينَ الفضّةَ.
لأَقُلْ: أنتِ شجرتي الأولى. كوخي وتابوتي، والتاجُ الذي أعْتَمِرُ.
صباحَ الخيرِ، أيها الشِّعرُ!

ـ ٤ ـ

لن أعاتبَكم
لن أودِّعكم ببياضِ الكحولِ
ولن أنحني حينما تَهْدُرُ العاصفةْ...
سأظلُّ أردِّدُ أسماءَكم
وسماواتِكم
سأكونُ الأمينَ على ما تركتُمْ.
أكونُ أميرَ الهَباء...

ـ ٥ ـ

وفي الليلِ
في آخر الليلِ
تأتي إليَّ الطيورُ
وتأتي ذئابُ البراري مبلَّلةً بالندى
وتأتي الغزالةُ...
....

. . . .

. . . .

في آخِرِ الليلِ
يأوي إلى غاريَ السَّبعةُ الشُّعَراء. . .

عمَّان، ٢٩/ ١١/ ١٩٩٤

شجرةُ البرقوق عند السياج
مزهرة،
لكنّ الأوراق لم تتفتّحْ بعدُ. . .
القصيدة تتأخر.

هذا العشب الذي يندفع في تراب الحديقة
لا يكترث،
وأنا الذي سأقطعه من أجل الأشجار الهرمة. . .
الربيعُ قصيرٌ دوماً.

التينُ فاجأنا: أخضرَ صُلباً
وأمس، حتى أمس
لم يكن على الشجرة إلا الورق...
الليلُ ذو أسرار.

شجرةُ اللوز
من أين جاءتها أزهارُ الثلج؟
شجرةُ اللوز
من أين جاءتها المناديل؟
المنفيّ لا يعرف الفصول.

السلحفاة وحيدةً

تبدأ دورةَ اليومِ في الحديقة.

السلحفاة مسرعة

لكن، إلى أين؟

الرسائلُ انقطعت منذ الشتاء.

الصبّار لا يضحك
الصبار يكتم أغنيته شائكةً
في قلبه.
وبغتةً، تنفجر الزهرة...
الصبّار، أيضاً، لا يعرف الفصول.

ها هي ذي زهرة السفرجل
حمراء، ملتفّة بالبنفسج. . .
وهكذا سيكون اللبّ
على طاولة الشتاء.
المرء، قد يتعلم.

لماذا جئتَ، مبكراً، أيها النحل؟
ليس في حديقتي إلا أزهار الصبّار. . .
أيها النحل
هل سيكون حتى العسلُ مُرّاً؟

عمّان، ٢١/ ٣/ ١٩٩٥

الحُوريّة

لم أكُ سكرانَ
ولا كنتُ قريباً من «بار الجرَّةِ»
أو بارات جنود الـ U.N الأخرى.
لم يكن الوقت مساءً
أو منتصفَ الليلِ...
لقد كان ضحىً، وأنا أتمشَّى وحدي
فرِحاً كنتُ لأني أتمشَّى وحدي
في قيظ الجزر الإغريقيةِ...
....
....
....
لكنَّ امرأةً غمزتني وهي تغني في شرفتها
....
....
....
والآن
أنا، منذ ثلاثٍ وثلاثين سنةْ

في شقّتها . . .

أغلقتِ البابَ

وأخفتْ عني الشرفةَ

والأغنيةَ . . .

. . . .

. . . .

. . . .

الآنَ

سأحلمُ لو كنتُ السكرانَ

ولو كنتُ قريباً من «بار الجرَّةِ»

أو بارات جنود الـ U.N الأخرى . . .

عمّان، ٥/ ٧/ ١٩٩٥

التذاكر

القطارُ الذي أردناهُ
قد غادرَ
والبيتُ، ذلك المنحني في البُعدِ
قد غادرَ. . .
والنخلةُ التي نبتتْ في البيتِ
قد غادرتْ.
فمن أين تأتيكَ البطاقاتُ كُلُّها؟
اليومَ
واليومَ
وتلك التي سنُدرِكُ فيها
مقعداً في القطارِ
والبيتِ
والنخلةِ التي نبتتْ في البيتِ
لا بأسَ. . .
كلُّ بيتٍ قطارُ.

عمّان، ٤/ ٧/ ١٩٩٥

موسيقى غرفةٍ

سوف آتي
إذا ما أقام المغنِّي صلاتي
قريباً من النهرِ. . .
كان المغنّون لا يعرفون الأغاني
المغنّون لا يعرفون المياه
المغنّون لا يعرفون الجنون
المغنّون كانوا الجنودَ
المغنّون لا يقرأون كتابَ الأغاني
المغنّون كانوا كلابَ الأغاني.
. . . .
. . . .
. . . .
وفي غفلتي سوف آتي
إلى النهرِ. . .
وحدي سأتلو صلاتي
لعلَّ المغنِّي يجيء

لعلّ المغنِّي سيُرهِفُ، حتى ولو كان خلف الشجيراتِ، سمعا
لعلَّ المغنِّي يضيء. . .
لعلّ المغنِّي يقيم، وحيداً، صلاتي.

عمّان، ١٨/ ١٠/ ١٩٩٥

إنصات

الآنَ
أنا متَّسعُ العينين
بعيدٌ عن منتصف الليلِ
وأبعَدُ عن خطوات الفجرِ. . .
أُحدِّقُ في الصورةِ، حيث الحائطُ أبيضُ
والأشجار وراء زجاج المطبخ سود. . .

● ●

في اللحظةِ
في هذي اللحظةِ
في البغتةِ
أسمعُ شمعاً يقطرُ في ماءٍ
ماءً يقطرُ في شمعٍ
أسمعُ أشجاراً تقطرُ أشجاراً
أسمعُ ماءً يقطرُ أسماءً
أسمعُ أسماءً تقطرُ ماءً
أسمعُ في الهدأةِ دمعاً يقطرُ
. . . .

. . . .

. . . .

أسمعُ في الصمت دماً يقطرُ

أسمعُ بغداد تئنّ. . .

. . . .

. . . .

. . . .

أسمعُ نبضي.

عمّان، ٥/١٠/١٩٩٥

خريفٌ متأخر

الخريف
يتأخرُ. . .
والبرقوقةُ، حَسْبُ
تنفض أقراطاً ذهباً عند محيط الحنفيةِ
حيث القطةُ تشربُ. . .
لا أحد اليوم سيأتي
أعرفُ من غيم الفجر، عميقاً، أني سأظل وحيداً
ووحيداً
أسأل عن ليل شتاءٍ يأتي
عن منقار رذاذٍ عند الشبّاكِ
عن الجمرة في زاويةٍ
في زاويةٍ يسرى
من هذا القفص المتستِّرِ بالأضلاعِ
. . . .
. . . .
. . . .

إلى كم سأظلُّ هنا
أنتظرُ القطرةَ
أنتظرُ الجمرةَ
. . . .
. . . .
. . . .
أنتظرُ الحفرةَ ذات مساء؟

عمّان، ٢٨/ ١٠/ ١٩٩٥

نصيحة

وشوشتُ للمطر الذي يهمي رذاذاً:
لستَ لي
فأنا شقيقُ البحرِ
لي الأمواجُ هادرةً
ولي ما تفعلُ الرمْضاءُ بالأعشابْ
أو ما تفعل الأنواء بالأخشاب
. . . .
. . . .
. . . .
يا أيها المطرُ الذي يهمي رذاذاً:
دَعْكَ. . .
لا تنسجْ حريرَكَ لي قميصاً
دَعْكَ. . .
لا تخلعْ على جسدي عباءتَكَ الحريرَ
ولا تحاولْ. . .
. . . .

. . . .

. . . .

زهرةُ الصبّارِ لي
وقميصُهُ
وسقيفةُ الحطّابْ.

عمّان، ٤/ ٧/ ١٩٩٥

اللّعنة

هذه الأرضُ، أرضُنا
لم نُمَتَّعْ بينابيعها، ولم نمشِ فيها مَرَحاً. . .
أرضُنا التي ما مددْنا غُصناً نحوها
لنلمُسَها، حتى أتانا السيفُ
الذي يبترُ الكفَّ، وأغصانَها، وأُولى الأغاني
. . . .
. . . .
. . . .
فاتركاني، يا صاحبَيَّ
اتركاني. . .
ولأَعُدْ نحوها،
وإن بَترتْ كفِّي، وأغصانَها، وأُولى الأغاني
ليس لي غيرُها
وليس لها غيري
فيا صاحبَيَّ. . . قُودا حصاني، وامضِيا،
إنني عرفتُ مكاني

هو مثواي

جُنَّتي

ومَآبٌ لن أرى فيه جَنّتي. . .

فاتركاني

وامضِيا

وانسَيا رسومَ المكانِ،

هذه الأرضُ، أرضُنا. . .

عمّان، ٢٦/ ١٠/ ١٩٩٥

علامات

في ليالٍ كهذهِ،
أُرهفُ السمعَ إلى السمعِ:
آخرُ القطرات انسربتْ
آخرُ القطارات في الدنيا توقفتْ.
ليس لي أن أعود إلا إلى مكتبتي
أُرهفُ السَّماعَ:
لماذا؟
ولماذا يئنّ في العتمة الموتى؟
لماذا يدور في الغصنِ نُسْغٌ من رصاصٍ وزئبقٍ؟
أيُّ غيمٍ بمعطفي قد مضى؟
أيُّ قنانٍ تدحرجتْ بين رِجليَّ؟
أكيدٌ أن السماء التي أعرفُ لمّا تزلْ. . .
ولكن، لماذا لا أرى عُمقها؟
الجبالُ؟
نسيتُ اليومَ أنّ الجبال تعلو
نسيتُ الشوكَ

والماعزَ. . .
أعني، نسيتُ رائحةَ الأشواكِ
والماعزِ. . .
. . . .
. . . .
. . . .
هل كنتُ في ليالٍ كهذه؟
أين كنتُ؟

عمّان، ١٢/ ٢/ ١٩٩٦

ـ ١ ـ

أمسِ
شربنا سُمّاً في «قصر البلّور»
وأكلنا جبناً أسود
وضفادعَ . . .
حتى كدنا نتقافزُ بين صخورٍ ومياه.

ـ ٢ ـ

أمسِ
سهرنا في البالكونةِ
منطرحينَ على أرضيّتها، نترطَّبُ . . .
كان لساني خشباً
وقميصي أصباغَ شفاه.

ـ ٣ ـ

أمسِ
رأينا لقطاتٍ من فيلمٍ أميركيٍّ
فعرفنا أنّ عواصمنا أيضاً
فيها فقراءٌ
وزُناهْ.

ـ ٤ ـ

أمسِ
تحدثتُ إلى تلك المرأةِ
كانت تخطئ في جمع الأعدادِ
من الواحدِ حتى التسعةِ
حتى عِشرةِ من تهواه.

ـ ٥ ـ

أمسِ
غسلتُ قميصي الأسودَ
(ليس لديّ سواه)
ليرفرفَ في أعلى المبنى
بيرقُ قرصانٍ
(ليس لديّ سواه).
وأخيراً. . .

ـ ٦ ـ

أمسِ
مددتُ يدي نحو يدي
لأضمَّ بها نجماً
أخطأَ في هذا السطح مداه.

دمشق، ٤/ ٨/ ١٩٩٥

رحلة الطائر الأخيرة

حينما أدخلُ عشَّ الأرضِ
مقروراً
ومسروراً
ويسترخي جناحاي
وأُرخي الجفنَ كي لا أبصر الأشجار تنأى مرّةً أخرى
فلا تبكي عليّ!
قلتُ: لا تبكي...
وإن شئتِ اذكري أنّ جناحيَّ
هما الماءُ
ولا ماء بلا موجٍ
ولا موجَ بلا منكسَرٍ
....
....
....
ها أنذا أرقدُ
مقروراً

ومسروراً

بلغتُ الشاطئَ الآخرَ.

لا تبكي!

فحتى صوتُ أنفاسيَ لن يأتي إليّ. . .

دمشق، ٨/ ٢/ ١٩٩٥

هاجس الأديم

من هذه الأحجار، أعرفُ أن شمساً في عروق الأرض تبدأُ.
ربما من قبل آلاف السنين، وربما من قبل مليونٍ. . .
تظل الشمس نائمةً بكل بهائها
مخبوءةَ الخُصلاتِ. . .
ترسل خصلةً يوماً إلى نبعٍ
وترسل خصلة يوماً إلى جبلٍ ليفتح صدرَهُ. . .
والشمسُ نائمةٌ
وفوق أديم هذي الأرض، تسعى الناسُ والأشجارُ
ثم تغور تحت أديمها لتكون شيئاً يشبه الأحجار
شيئاً سوف يلمس نورَ شمسٍ في عروق الأرض نائمةٍ. .
ليطلع، ربما من بعد آلاف السنين
شجيرةً
أو زهرةً
أو كأس خشخاشٍ
ومن يدري. . .
لعلّ فتىً جميلاً مثل يوسفَ

سوف يطلُعُ
بيننا متهلِّلَ القسماتِ. . .
من يدري
لعلّ المرتجى يأتي
ومن يدري
فربّتما انفجرنا، بغتةً، شمساً!

عمّان، ١٢/ ٢/ ١٩٩٦

حيّ الأكراد

أوّلاً: تستيقظ القطةُ
حتى قبل أن يندفع الخطّافُ في الرقصةِ
بين السقفِ والريحِ...
هي القطةُ
مستنفرَةً
منفوشةَ الذيلِ
ستلقى صيدَها...
العصفورَ في أعلى عمود الكهرباء الخشبِ
الصرصارَ عند النبعِ
أو قد تهبطُ النعمةُ هذا الصبحَ:
قد يمرقُ فأرٌ...
ثانياً: تنطفئ الأضواءُ في السفحِ
وبيتاً، ثم بيتاً... تختفي ساحرةُ الليلِ
ويأتي الجبلُ الأجردُ بالأتربة الأولى
وقصديرِ السماواتِ
وما نغفلُ عنهُ...

ثالثاً: يستيقظ الكرديّ في سطحٍ
ويطوي، هادئاً، ما افترشَ الليلَ
ولا يترك في السطح سوى شروالهِ
منتفخاً
يَخفق،
من حبل الغسيل...

دمشق، ٢٢/ ٢/ ١٩٩٤

صباحٌ ما

المنفيون
يحبون ملابسهم
ونباتاتِ الزينةِ، والقططَ. . .

المنفيون
يحبون اللغة الأخرى
ومواعيد قطارات الليلِ. . .

المنفيون
يحبون حساباتٍ ما كانوا ليحبّوها
وروايات
راياتٍ
ما كانوا لـ. . .
المنفيون

سوف يفيقون صباحاً ما
ليروا أنهمو منفيّون
حتى عن معنى المنفى. . .

عمّان، ٤/ ٧/ ١٩٩٥

تفاؤل

ـ ١ ـ

لمن سوف نترك تلك البلاد؟
لأبنائها، وهمُ الطائعون؟
لأحفادهم، وهمُ الغائبون؟
لأسلافنا؟
نحن لم نرفع الرأسَ يوماً بأسمائهم. . .
ليس إلا نبيٌّ لنا بينهم،
فلمن سوف نترك تلك البلاد؟

● ●

لا أقول البلادُ طائرةٌ مثل كرة
لا أقول البلادُ مقطوعةٌ مثل خيط جنديٍّ في إبرة
لا أقولُ البلادُ منسيّةٌ مثل أسماء نبت الربيع
لكني أحدِّثُ عن أخبارها:

● ●

لها أيطلا ظبيٍ، وساقا نعامةٍ
ولكنها في الوقفةِ ـ العزِّ تعرجُ

كتائبُها العشرون في الرملِ،
والدجى مصابيحُها
والخبزُ، كالبدر، بهرجُ
ألا لا ألا إلاّ ألا لا ألا ألا
ألا إن نار الحيّ بعرٌ وعرفجُ

ـ ٢ ـ

لمن سوف نترك تلك البلاد
البلادَ التي قد عرفنا
ولم تعترف ببنوَّتنا؟
أين كنّا بها، يوم كنّا بها؟
كيف يذكرها الطفلُ
والمهدُ زنزانةٌ؟
أيُّ معنىً لتلك البلاد؟

● ●

لا مغنِّيَ في العراق
كلهم ينوح مثل ندّابة السلَف
الأوتار مقطوعة
لكنْ، ثمَّت، دائماً، قردٌ أصلعُ المؤخرّة
يضيف وتراً مُزوَّراً إلى عود زرياب.

● ●

بليتُ، بِلى الأطلال، إن لم أقف بها
وقوفَ أسيرٍ فَرَّ في الليل آسرُهْ
يقدِّمُ رِجْلاً، ثم يرتدُّ مُجفلاً
وقُدّامَه أرباضُهُ ودواسِرُهْ
لقد سئم السجّانُ أثوابَ عيشهِ
فَهَمَّ، ولكنَّ السجينَ يُعاوِرُهْ.

- ٣ -

لمن سوف نترك تلك البلاد؟
ومن قال إنّا سنتركها . . .
سوف نأتي إليها، لنأتي عليها
لنسحبها من ضفائرها قبل أن تحتفي بدم البئر
أو قبل أن تحتفي
في سُراها،
البلاد التي أوجعتْنا طويلاً . . .

● ●

أريد أن أبدِّد هواء الخنادق
أريد أن أهَبَ مُدمنَ الكحول غزالةً
أريد أن أثمل بالماء الذي هو ماء
أريد أن أحبَّ . . . .

● ●

تَلَفَّتُّ نحو الحيّ، حتى وجدتُني
أراجعُ أهلَ الحيّ، نهراً ومنبعا
أقولُ لهم: ما أطيبَ العيشَ. . .
إنما غضارةُ طيبِ العيش أن ننثني معا
وأن ننحني للغصنِ
كالغصنِ
رفقةً. . .
وأن نسألَ الأعناقَ أن تترفّعا.

عمّان، ١٢/ ٢/ ١٩٩٦

مفتاحُ الانفرادية

ـ ١ ـ

أيُّ بلادٍ بلادُنا؟
سطحُ القمر، أم الجحيم؟
هذه القُزَعُ البيضُ
بمَ هي مؤْذنةٌ؟
ربما، بأننا سنظل الحالمينَ بالماء.
نسينا أن السماء زرقاء
نسينا أن لنا سماءً إلا في الليل.

ـ ٢ ـ

هذه الصحراء، صحراؤنا
الرملُ والريحُ أذكى من فازاريللي.
البحرُ رملٌ
والسحابُ طيشٌ.
الأفق نعرفه
لأنه مَوطئُ أقدامنا.

والأرضُ سماءٌ قاسيةٌ
فما حاجتُنا للآلهة؟

ـ ٣ ـ

الآن تأتي الخطوطُ والدوائر.

١٠/١١/١٩٩٥
في الفضاء إلى مسقط
طائرة الـ Gulf Air

العربُ البائدة

ما كانت تلك البلدانُ، لنا، يوماً
نحن أتيناها خطأً
ثم أقمنا سنواتٍ مرتحلين بها
وسنيناً في طرقات الأطلس مرتحلين بعيداً عنها
لكنْ
ما أحببنا يوماً أن نرحل في الحلم إليها.

كانت تلك البلدانُ تجيء على عرباتٍ ريشٍ
وتدقُّ الأبوابَ مساءً
دقّاتٍ سبعاً ببنادقها
دقّاتٍ سبعاً بعظام بنيها
دقّاتٍ سبعاً بأكفٍّ تستجدي ماءً
دقّاتٍ سبعاً برئاتٍ تسألنا، نحن المخنوقين، هواءً
سنقول لها: لن نفتحَ!
لكنّ البلدان تُراوغنا
وتحاول أن تخلع لوحَ زجاجٍ
كي تدخل في مكتبة الأشباحِ

. . . .

. . . .

. . . .

هدوءاً يا سُعلاةُ

هدوءاً يا مرآةُ

هدوءاً. . .

إنكِ ـ منذ رحلْنا ـ في مكتبة الأشباح.

عمّان، ١٦/ ١٠/ ١٩٩٥

America, America!

يا ربَّ، احفظْ أميركا
موطني، موطني اللذيذ. . .
God save America
My home, sweet home!
الجنرال الفرنسي، الذي رفع الراية مثلثة الألوان
على «نقرة السلمان» حيث كنتُ سجيناً، قبل ثلاثين عاماً. . .
في منتصف الاستدارة تلك
التي قصمت ظهر الجيش العراقي،
الجنرال الذي يحب نبيذ سانت إميليون
سمَّى «نقرة السلمان» حصناً. . .
الجنرالون لا يعرفون من أديم الأرض سوى بُعدَين:
ما نتأَ، حصنٌ
وما انتسطَ، ساحةٌ.
يا لجهل الجنرال!
لكنّ «ليبراسيون» كانت أعرف بالتضاريس
فالفتى العراقي الذي احتلَّ صفحتها الأولى
كان متفحماً وراء مِقود الشاحنة

على طريق الكويت ـ صفوان
بينما أجهزة التلفزيون: غنيمةُ المهزوم وهويّتُه
كانت سليمة في الشاحنة، كأنها في واجهة مخزن
بشارع ريفولي.
القنبلة النيوترونية ذكيةٌ جداً
إنها تميز بين «هو» و«هويّة».
يا ربَّ، احفظْ أميركا
موطني، موطني اللذيذ...
God save America
My home, sweet home!
BLUES
كم سأمشي إلى ساكرمانتو
كم سأمشي إلى ساكرمانتو
كم سأمشي لأبلغ بيتي
كم سأمشي لأبلغ بنتي
كم سأمشي إلى ساكرمانتو!

■

منذ يومين، لم يَسْرِ في النهرِ مركبْ
منذ يومين يومين يومينِ
يا عسلي، كيف أركبْ؟
إنني أعرف النهر

لكنْ، ولكنْ، ولكنْ، ومن قبلِ يومينِ
لم يسرِ في النهر مركبْ

■

لا. لَـ. لا. لا. لَـ. لا
لا. لَـ. لا. لا، لَـ. لا
الغريب يخاف
لا تخفْ يا جوادي
لا تخف من ذئاب البوادي
لا تخفْ فالبلادُ بلادي
لا. لَـ. لا. لا. لَـ. لا
لا. لَـ. لا. لا. لَـ. لا
الغريبُ يخاف.
يا ربَّ، احفظْ أميركا
موطني، موطني اللذيذ...
God save America
My home, sweet home!
أنا أيضاً أحبُّ الجينز والجاز وجزيرة الكنز وببغاء جون سيلفر ونوافذ نيو أورليانز
أحبُّ مارك توين ومراكب المسسبي وكلاب أبراهام لنكولن أحب حقول القمح والذُّرة ورائحة التبغ الفرجيني لكني لستُ بأميركيّ
أيكفي أنني لست بأميركيّ حتى يعيدني طيار الفانتوم إلى العصر الحجري؟

Back to siome-age!

لا البترولَ أريدُ ولا «أميركا» لا الفيلَ أريدُ ولا الحمار اتركْ لي أيها الطيار بيتي المسقوف بالسعف وقنطرة الجذوع لا أريد البوابة الذهبية ولا ناطحات السحاب أريدُ القرية لا نيويورك لماذا جئتني من صحراء نيفادا أيها الجندي المسلّح حتى الأسنان؟ لماذا جئتَ إلى البصرة البعيدة حيث السمك يبلغ عتبات البيوت؟ الخنازير لا ترعى هنا لديّ فقط تلك الجواميس التي تمضغ كسلى نيلوفرَ الماءِ اتركني أيها الجنديّ اتركْ لي كوخ القصب الطافي وحربة الريش خذْ طيور الحديد المزمجرة وصواريخ توماهوك لست الخصيمَ

أنا المخوِّض حتى ركبتيَّ في مناقع الرزّ

اتركني ولعنتي

لا أريد قيامتك.

يا ربَّ، احفظْ أميركا

موطني، موطني اللذيذ. . .

God save America

My home, sweet home!

أميركا!

لنستبدلْ هداياكِ

خذي سجائرك المهرَّبة

وأعطينا البطاطا.

خذي مسدس جيمس بوند الذهب

وأعطينا كركرة مارلين مونرو.

خذي حقنة المخدِّر المرمية تحت شجرة
وأعطينا زجاجة المصل.
خذي خرائط السجون النموذجية
وأعطينا بيوت القرى.
خذي كتب مبشِّريك
وأعطينا ورقاً للقصائد التي تهجوكِ.
خذي ما لا تملكين
وأعطينا ما نملك.
خذي أشرطة البيرقِ
وأعطينا النجوم.
خذي اللحية الأفغانية
وأعطينا «لحية والت ويتمان الملأى بالفراشات».
خذي صدّام حسين
وأعطينا أبراهام لنكولن!
أو لا تعطينا أحداً.

■

الآن
أنا أنظرُ عبر الشرفة
عبر سماءِ الصيفِ، الصيفِ الصيفيّ،
دمشقُ تدور، مدوَّخةً، بين هوائيات التلفزيون
ثم تغور، عميقاً، في حَجَر الأسوار

وفي الأبراجِ
وفي أرابيسكِ العاجِ،
تغور، بعيداً، عن «ركن الدين»،
وتغيب عن الشرفةِ. . .
. . . .
. . . .
. . . .
والآن
أتذكرُ أشجاراً،
نخلةَ مسجدنا في البصرةِ، في أقصى البصرةِ:
منقارَ الطيرِ
وأسرارَ الطفلِ
ومائدةَ الصيفِ
النخلةُ أذكرُها
أتلمَّسُها، وأكونُ بها، حين هوت سوداءَ بلا سعَفٍ،
حين هوت قنطرةً من نَحْتِ البرقِ.
وأذكرُ فحلَ التوت
يومَ تهاوى، يتقصَّفُ، مذبوحاً تحت الفأسِ. . .
ليمتلئ الجدولُ أوراقاً
وطيوراً
وملائكةً

ودماً أخضرَ. . .
أذكرُ كيف أسّاقَطَ زهْرُ الرمّان على الأرصفةِ.
(الطلابُ يقودون تظاهرةَ العمالِ)
. . . .
. . . .
. . . .
الأشجارُ تموت
مهدَّمةً
دائخةً
لا واقفةً. . .
الأشجارُ تموت.
يا ربَّ، احفظْ أميركا
موطني، موطني اللذيذ. . .
God save America
My home, sweet home!
كلّنا، لسنا أسرى، يا أميركا
وجنودك ليسوا جندَ اللَّه. . .
نحن، الفقراءَ، لنا أرض الآلهة الغرقى
آلهةُ الثيران
آلهة النيران
آلهة الأحزان المجبولة صلصالاً ودماً في أغنيةٍ. . .

نحن، الفقراءَ، لنا ربُّ الفقراء
الطالعُ من أضلاع الفلاّحين
الجائعُ
والناصعُ
والرافعُ كلَّ جبين...
نحن الموتى، يا أميركا
فليأتِ جنودُكِ!
من يقتلْ ميّتاً يبعثْهُ...
ونحن الغرقى يا سيدتي
نحن الغرقى
فليأتِ الماء...

دمشق، ٢٠/٨/١٩٩٥

الوردة والقمر

«أغنية»
تعالَ
تعالَ أنتَ، تعالَ أنتَ، تعال أنتَ
تعالت الأعشاب في الوادي،
تعالى الطينُ في الفخّارْ
تعالى التينُ
وامتلأت جِرارُ الماءِ بالماء الذي فاضت جداوِلُهُ.

■

مع النُّعمى تعالَ
تعالَ أنتَ، تعال أنتَ، تعال أنتَ
تعالت الأسماءُ في طبلِ الزنوجِ هناكَ
أعلى التلِّ
واندفعتْ...
تعالَ.

■

تعالَ أنتَ
تعالَ أنتَ

تعالَ.
وردٌ في قميص النَّبتِ
وردٌ في عروق البنتِ
وردٌ
وردةٌ في البيت، واحدةٌ
فهل تأتي لتقطفَها...
لتعتليَ السياجَ؟
تعالَ
تعالَ أنتَ
تعالَ أنتَ
تعالَ... يا قمرَ الجنوب...

باريس، ٥/ ٢/ ١٩٩٥

حانةُ القردِ المفكّر

(١٩٩٧)

استقبال

ثلجٌ على الصبّار ينزلُ، ثَمَّ غمغمةٌ ومقهى، نجمةٌ ومعسكراتٌ، ثوبُ قدِّيسٍ تَناوشَهُ ذئابٌ، ذاتُ أحذية من الجلد الأنيقِ. وكيف تبتردُ السلاحفُ في سواحل حضرموتَ؟ البدرُ يومئ عند قاع النهرِ، والفتياتُ يصرخن انتشاءً. لا أريد رصاصةً. حظي من الدنيا الحوائطُ لصْقَ ظَهري. كم يكون العشب نضْراً في مَساهب شَهْرَزُورَ! رأيتُ حبلاً قد تدلَّى. أين يوسفُ؟ كنتُ في أسواق تمبكتو... وضعتُ. سفينةٌ جنحتْ بنا ليلاً على ضحضاح جيبوتي...

موقاديشو تقدمُ لحمَ ضأنٍ للكواسجِ(*). لستُ أعرفُ وجهةً. لي قطعةٌ صارت تحدثني أخيراً عن حياتي. أيها الأبدُ الذي ينأى: لماذا خنتني أيضاً؟ سأعرفُ كيف أرتشفُ العشيّة قسوةَ الأزهار. ما طعمُ الخديعة؟ مرةً سافرتُ مأخوذاً بأغنيتي. قطاراتُ الجنود تمرُّ... مُرَّ. تمرُّ. مُرَّ. تمرُّ. مُرَّ... الثلجُ في موسكو يُسَخِّنُ أدمعي. لا خيرَ في الرّعيان إن حلّوا وإن رحلوا. المدائنُ تستحيلُ قرىً بهزِّة إصبعٍ. خبزي من الرزّ الثخينِ، وملحُ أسماكي رمادٌ. لا

(*) الكواسج: أسماك القرش.

سبيلَ لكي أكون ضجيعَها ليلاً بمبنى الطالبات. بَلى... نهارَ السبت تغلقُ بابَ غرفتها عليَّ. سأحرقُ الأوراقَ. قد يأتي المفوَّضُ. كنت أنعسُ في قطار الليل مغلولاً. وكان المقعد الخشبيُّ طائرتي التي سقطتْ. لكِ التهليلُ يعلو با فتاة الحانة البحرية. الغرباءُ عادوا من سفار الماسِ. فوق صخور «حَجَّةَ» تستَريح نسورُ حِمْيَرَ. مرّةً أوشكتُ أن أجد الهلالَ الطفلَ في كفّي. لماذا غادرَ البشرُ الحديقةَ؟ لا أريد يديك. لا تلقي إليّ بحبلكِ المجدولِ من خرَق. وجدتُ اليومَ منجَرَفاً:
فأهلاً بالحياة... ومرحباً بعشيقتي الأخرى.

عمّان، ٢٣/٣/١٩٩٧

الهدوء

إهدإ الآنَ
إهدأ ولو ساعةً
واتَّركْ للشرايينِ عاداتِها . . .
أنتَ أرهقتَها ،
وهي لا تتحملُ . . .
أرهقتَها
فاهدإ الآنَ
مَسِّدْ غضونَ الجبين التي ارتسمتْ منذ عشرين عاماً
ولا تلتبسْ في سؤالْ
ولا تلتمس جلّناراً بوادي الرمالْ
أنتَ لن تَبْرأ الكونَ من طين كفّيكَ
لن ترسمَ النجمَ أحمرَ فوق البيارقِ
لن تغتذي بالرحيقِ . . .
. . . .
. . . .
. . . .

اتّئدْ
واهدإ الآنَ
وانظرْ إلى مطر الياسمينةِ أبيضَ
انظرْ إلى الظلِّ
قبل فوات الأوان.

عمّان، ٢٣/ ١٠/ ١٩٩٦

السّفارة

«سوف أمضي إليهم
حين يعلو الضحى في أواسطِ آذارَ. . .»
. . . .
. . . .
. . . .
واليومَ، جاء الضحى عالياً:
أنتَ تقطعُ خطَّ المشاة لكي تبلغَ السورَ
حيث رؤوسُ الشجرْ. . .
ثم تخطو، يميناً، إلى النافذةْ
(شبكٌ من حديدٍ صدئ).
لكَ أن تتملَّى من النافذةْ
وجهَ مَنْ سوف يضغط زراً لينفتح البابُ. . .
تدخلُ:
شخصان، تُنهيكَ خطفاً، عيونُهما.
ثم تدخلُ
ـ عبر الممرّ المكهربِ، عبرَ العيونِ التي صُوِّبتْ جيّداً ـ

بابَ عشتارَ،
ها أنتذا
تهبطُ الدّرجاتِ
لتلقاكَ أرشكيجالُ(*) التي تتبسَّمُ

ها أنتذا
تتلفَّتُ في السرِّ...
....
....
....
بابٌ، يُرَدُّ وراءكَ، في لحظةٍ:
أنتَ تهوي، عميقاً، بِوادي الذين أهانوا وهانوا
ترى ما ترى
ثم تهجسُ أنك قد لا ترى ما لا ترى...
قد ترى الغَلْق يُطْبقُ في لحظةٍ،
قد تقررُ أرشكيجالُ التي عبستْ فجأةً:
لن يعود...
....
....

(*) أرشكيجال: أخت عشتار، وملكة العالم السفلي، عالم الموتى.

. . . .

ثم ماذا؟

أليس السفرْ

ينتهي بجواز السفرْ؟

عمّان، ١٧/ ٣/ ١٩٩٦

حوار مكتوم

قلتُ:
أبعُدُ، هذي العشيّة، عن مهرجان المغنّين
مكتفياً بالرنين الذي أتلمّسُ
في إِبرِ النحلِ
أو شوكةِ التمتمةْ

هكذا أبتني غرفةً
ليس فيها مكبِّرُ صوتٍ
وإذ يهبطُ الصوتُ حتى القرار
أحاولُ أن أرتقي سُلّمَهْ
أنت تعرفُ كيف يكون الأسى واضحاً
وهو منعقدٌ بين عينيكَ...
لا بأسَ،
لكنْ...
أتعرفُ أنَّ الأسى رعشةٌ، حسبُ
أنَّ الأسى لا يكلِّمُ من كَلَّمَهْ؟

كيف نمضي، إذاً؟
لا الطريقُ يؤدِّي
ولا ناسكُ الكهفِ يمنحنا في متاهتنا أسهُمَهْ
واللسانُ الذي كان. . . ينعقدُ الآن
والنجمُ يخفتُ
والسهبُ لا يذكر الحمحمةْ
كيف نمضي، إذاً؟
لا تقلْ: كيفَ:
وانظرْ إلى الماء، تلقَ السماءَ،
إلى السهمِ
والسُّمِّ
تَلْقَ السِّمةْ.

هل ترى الراقصين يدورون في ليلة العيدِ
والسهلُ يوقدُ نيرانَهُ
في وضوح المساء؟
ابتعدْ. . .
وامضِ حتى النهاياتِ
حتى احتضاركَ
. . . .
. . . .
. . . .
حتى تبلِّغكَ السِّدرةُ، القمّةَ المبهمةْ.

عمّان، ١٢/٦/١٩٩٦

الناطور

يجلسُ تحت غصونِ التينةِ

ملتفّاً بغمامتهِ

مختصراً من قامته

وهو يلفُّ التبغَ الهولنديَّ. . .

ويختلسُ النظراتِ

إلى آخرِ ما يَسَّاقَطُ من أوراق التينْ

. . . .

. . . .

. . . .

سوف يجيء مساءٌ آخر

فيعود إلى غرفتهِ

ويُرَتِّبُ من وضعِ حَشيَّتهِ

ولسوف يرى إذ يغمضُ عينيهِ

ملائكةً بملابسِ بحّارةْ

ونساءً في لوحةِ خمّارةْ

ورجالاً يمضونَ إلى الجنّةِ بالأغلالْ.

. . . .

. . . .

. . . .

أحياناً يتساءلُ:
ما معنى أن يجلس تحت غصونِ التين
وأيلولُ أتى
والتينةُ ليس بها حبَّةُ تينْ؟

عمّان، ١٦/٩/١٩٩٦

المحاولة

كان فيليب المقدونيّ
أسرعَ من حَلَّ سؤالاً في العالم
قال: أظلُّ مع السيف
وأنامُ مع السيف
حتى تبيضَّ عظامي
ليظلَّ السيف. . .
. . . .
. . . .
. . . .
لكنَّ الإسكندر
لم يتعلمْ ما يتعلمهُ الابنُ من الأبِ.
قال الإسكندر:
سأطوفُ العالم
ورفاقي فرسانٌ وفلاسفةٌ
أبحثُ عن أسئلة العالم.
. . . .
. . . .

. . . .
الإسكندر
وهو يُطَوِّف محترقاً بسؤال العالم
ظلَّ وحيداً
ظلَّ بلا قبرِ
ظلَّ بعيداً. . .
لم يتركْ إلا صورتَهُ
وجهَ صبيٍّ
حاولَ أن يبصرَ هذا العالم.

القاهرة، ١٢/ ١١/ ١٩٩٦

رباعيّة الميناء

ـ ١ ـ

من شرفةِ قَيْلٍ مخلوعٍ
كنتُ أحاولُ أن أستقبلَ ما يرسلُه نحوي البحرُ
وثَمَّ مبانٍ أربعةٌ
تتمدَّدُ، قائمةً، بين شواطئ عينيَّ وبين البحر. . .
أنا كرسيٌّ يتضعضعُ
مُديةُ صيّادٍ تصدأ
حَذّاءٌ بين حُفاةٍ
حافٍ يتراكضُ بين المنتعلينَ نُضاراً،
أنا:
من شرفةِ قَيلٍ مخلوعٍ أبني مملكةً
لكنَّ البحر هناك
وثَمَّ مبانٍ أربعةٌ تفصلني عنهُ. . .
الآن
أحسُّ به، بأنامله فوق جبيني
وأحسُّ به

يضفرُ تاجاً لي، من هَبَبات الريح
ضفيرةَ غصنين ينوسان على وجهي،
هبّةَ ريحٍ باردةٍ
هبّةَ ريحٍ ساخنةٍ
وأنا، من شرفةِ قَيلٍ مخلوعٍ أرقبُ مملكتي:
أغصانَ البوغانفيلاّ
أغصانَ الدُّفلى
والنبتَ المتسلقَ ذا الأزهارِ البيض
وجذورَ الصبّار
وذاك البحرَ المتحصِّنَ خلفَ مبانٍ أربعةٍ
وأنا، من شرفةِ قَيلٍ مخلوعٍ أرقبهُ
يهدأ في عينيَّ المغمضتين...

ـ ٢ ـ

أكيدٌ أنّ الشاطئَ خالٍ
وأكيدٌ أنّ سياجَ المقهى يترنَّحُ...
أنّ صخورَ الصيادين تئنُّ من الأمواج
وأنّ الصيادين مضوا منذ سنين...
وأن رذاذاً ما طاولَ ساريةً تترنّحُ
في قارب صيد ينضَحُ،
....

. . . .

. . . .

ثَمَّ مبانٍ أربعةٌ
تتمدَّدُ، قائمةً، بين شواطئ عينيَّ وبين البحرِ
ولكنني من شرفة ذاك القَيلِ المخلوعِ
من الشرفة
من أقصى الشرفة إيّاها
أبصرُ ما يرسلُه البحرُ إلى الأغصان
أغصانِ البوغانفيلاّ
أغصانِ الدفلى
وأغصانِ النبتِ المتسلّق ذي الأزهار البيض
الآن، أرى أذرعةً خُضراً
وعيوناً خضراً
ونجوماً بيضاً
تجتازُ مبانيَ أربعةً
تجتازُ سدوداً أربعةً
وتُلوِّحُ، دامعةً، للبحرِ
(يباغتني مطرٌ)
وأنا:
القَيلُ المخلوعُ
الحَذّاء الملقى بين حُفاة

والحافي بين المنتعلين نُضاراً
أرفعُ في ليلِ المرفأ
قبضةَ بحّارٍ مشدودةْ
وأحاولُ أن أوقدَ قنديلاً
قد لا يبصرهُ في هذا الليلِ سواي...

ـ ٣ ـ

كم أزمانٍ مرَّتْ، وأنا في المرفأ
كم من سفنٍ عبرتْ
كم من سفنٍ غبرتْ
كم من سفنٍ غرقتْ
وأنا في هذا المرفأ...
عيناي تغيمانِ لأبصرَ:
أيةُ آفاقٍ تتماوجُ في البُعد؟
وأيُّ طيور؟
أيُّ عرائسَ سوف تغنِّي
لعظامِ البحَّارِ الضائعِ في الأسماك؟
وأيُّ زوابعَ تنتظرُ؟
....
....
....

والمرفأ، هذا المرفأ، أعرفُه
منه انطلقتْ أولى عرباتي تحرث قاعَ البحرِ،
وكنتُ فتىً
أبحثُ عن راياتٍ حمرٍ وبلادٍ بيضاء
كنتُ فتىً
لم أتمرَّغْ، بعدُ، على قمصانِ نساء
لم أسألْ بَعدُ،
ولم أسكنْ ذاكَ الموضعَ بين العتْمة والأضواء
الدهشةُ لي
والصيحةُ لي
والموجةُ لي
والأبدُ المتقدمُ تحت الرايات الحمراء
كنتُ فتىً
وزماني كان شبيبتَهُ
والماءُ بكوزي غيرُ الماء.

ـ ٤ ـ

الآنَ
أتمتمُ في شرفةِ هذا القَيلِ المخلوعِ
صلاةَ الغائبِ...
ألتفتُ، اللحظةَ فالأخرى

منتظراً، والموجَ المتطامنَ، خطوتَه مرهفةً فوق الماء
منتظراً قامتَهُ
وقميصَ القطنِ
وبسمتَهُ
وجدائلَهُ إذ يتخاطفُها البرقُ
ورايتَهُ المنقوشةَ بالنجمِ وبالملح . . .
الآن :
أقولُ سلاماً للرملِ
سلاماً للبحرِ
سلاماً لفتىً لم يخذلْني
لفتىً جاءَ
ليأخذَني من شرفةِ القَيلِ المخلوعِ
ويُدخلَني مملكةَ البحر . . .

عمّان، ١٩٩٦/١٠/٢٢

تهويمُ المسافر

ـ ٢ ـ

في الضباب الذي يختفي تحته النخلُ والنّملُ
والطّيرُ
فكّرتُ أن أعبرَ النهرَ
أن أجدَ الجسرَ، ذاكَ الرهيفَ
وأن أبلغَ الضفةَ. . .
الصبحُ يهدأ في نومه
والمدينةُ لم يبقَ منها سوى مسربٍ واحدٍ لخُطاي. . .
هنا، قلتُ:
فلأستمعْ، وأنا في سبيلي،
إلى نفَسِ الصبحِ
ولأرهفِ السمعَ. . .
قد يحدثُ الأمرُ في غفلتي
في رطوبةِ هذا الضبابِ
وفي رفّةٍ من جناحٍ يفاجئُ. . .
. . . .

. . . .

. . . .

من قالَ إن المدينةَ قد غادرتْ، بغتةً، في الضباب؟
تُرى، هل سأسمعُ منها ولو رفّةً؟
هل سأسمعُ منها ولو حفقةً؟
ثم أنّ المدينةَ كان لها قلبُها، كالمدنْ. . .
هكذا، قد تَحنّ
هكذا، قد تئنُّ قليلا
ربما حدثَ الأمرُ. . .

. . . .

. . . .

. . . .

أو ربما سرتُ حتى النهايةِ
مستغرقاً في الضباب.

ـ ٢ ـ

كان يهبطُ هذا الضبابُ، كثيفاً، كثيفاً
يلا رحمةٍ. . .
كيف يُخمدُ حتى الضفادعَ في الجرفِ
والعشبَ

والقصبَ المتطاولَ...

والموجَ؟

هذا الضبابَ الذي ليس يُنبتُ إلا الضباب

انتهيتُ إلى بابه حيثُ يبتدئُ الجسرُ؟

لكنْ:

إلى أين يأخُذني؟

إنني أجهلُ الضفةَ...

الناسُ قالوا: الحياةُ ضفافٌ.

فهل أنا في القاعِ؟

....

....

....

أعرفُ أني مريضٌ

وأعرفُ أنيَ أجهلُ ما ينفعُ المرءَ، أو ما يُضرُّ

وأعرفُ أني بلا سلعة كي أتاجرَ...

أعرفُ هذا

ولكنني لا أريدُ المدينةَ هذي وقد أطبقتْ فمَها...

لا أريدُ الضباب

ولا أتردّدُ، مثل الشقاة، على حافة القصر

إني امرؤٌ غافلٌ

وغبيٌّ
وأحفظُ عهدي
وأحفظُ للناسِ ما كان عندي. . .
لهذا، سأخطو على الجسر، أولى خُطاي.

ـ ٣ ـ

عند منتصف الجسرِ
ـ كان الضبابُ هنا مطبِقاً وعنيفاً ـ
هجستُ يداً باردةْ
تتلمَّسُ وجهي ـ ارتعشتُ ـ
وفي لحظةٍ، خرجَ الشخصُ من سجنه الأبيضِ. . .
الشخصُ، كان امرأةْ.
. . . .
. . . .
. . . .
ـ أين تمضي؟
* أنا أعبرُ الجسرَ. . .
ـ لكنْ، إلى أين؟
* أمضي إلى الضفة الثانيةْ.
ـ كلُّ جسرٍ له ضفتان. . .

فأنّى تريد؟

* أنا أقصدُ المنتأى.

ـ لستُ أفهمُ...

* سيدتي!

ـ أنا عمياء...

* في مثل هذا الضبابِ، أنا الآن مثلك أعمى

....

....

....

تسقطُ اليدُ، باردةً، عن جبيني
وأخطو
لأدخلَ في التيهِ
والمرأةُ ـ اللغزُ تخطو
لتدخلَ في التيهِ...
والجسرُ ـ منتصفُ الجسرِ ـ في صمته، لا يؤدِّي.

....

....

....

ولكنني سوف أمضي إلى ضفتي.
سوف أمضي إلى المنتأى...

ـ ٤ ـ

أنا أقتربُ الآنَ من آخرِ الجسرِ
أعرفُ من خفّةٍ في الضبابِ
ومن فُسحةٍ فيه
أني إلى الضفة الثانيةْ
عابرٌ،
أعرفُ الآنَ أنّ يدي طائرٌ
في السماءِ بأجنحةٍ خمسةٍ،
وخُطاي الضياء. . .
. . . .
. . . .
. . . .
كلُّ ما كان حولي يَشفُّ:
الضبابُ الذي يتكشَّفُ عن وردة
والضفادعُ في الجرف
والعشبُ
والقصبُ المتطاولُ. . .
كان الهواءُ خفيفاً مندَّى
ومن شجر لا أرى غيرَ أشباحه يأزجُ الكونُ. . .
أسمعُ تهليلةً
وأكادُ أرى في البعيدِ البعيدِ بيوتَ القرى.

- ٥ -

خطوةٌ

خطوتانِ

ثلاثُ خطىً، خُطَاً

ثم أقطعُ أغنيةَ الجسرِ. . .

. . . .

. . . .

. . . .

قِفْ!

عمّان، ٦/ ١/ ١٩٩٧

الجفاف

في السنوات الخمسين،

في سنواتي، وأنا أسكنُ تلك القريةَ... كنا، كل صباحٍ، نخرج مذعورين، لنرتقيَ التلَّ، هناك، بعيداً عن بئر أبينا المطويّةِ... كنا نحملُ في سلّة خُوصٍ من منزل شيخِ الحيِّ قرونَ كباشٍ، وعظاماً من هدهدِ فاطمةَ العذراء، وريشةَ طاووسٍ من مصحفها... ونسيرُ إلى التلِّ، هناك نصلِّي، ونغنِّي، ونعفِّرُ بالرملِ جباهَ الأطفال، ونلبسُ قمصاناً ناصلةً بالمقلوب... لعلَّ الشمسَ تغيبُ ولو نصفَ نهارٍ، كي نبصرَ غيماً حتى لو كان سراباً، ولعلَّ الماءَ ـ ولو في الحلم ـ يجيء...

من أين يجيء الماء
والأرضُ مَواتُ
من أين يجيء الماء
وأولو الأمرِ بُغاةُ؟
سيماءٌ سالفةٌ
سيفٌ سرِّيٌّ يتسللُ... سكّينا،
طبطبةٌ وغضاً وغطاريفُ
طبولٌ وقباطنةٌ

وقصورٌ تتدحرجُ طابوقاً صخريجاً. . .
هل هذي هفهفةٌ لهوىً؟
حلْ(*) حلّتْ حمحمةُ الحمّى؟
سيماءٌ
سيفٌ
سدرةُ بستانٍ باسقةٌ.
خَلِّ الخيلَ، إذاً، تنخرُ
خلِّ خيولَ الحمَّى تختضُّ بيارقُها. . .
سيفٌ
سدرةُ بستان
سروالُ امرأة. . .
نحن سئمنا ريشَ الطاووسِ، وعظمَ الهدهدِ.
لم يعد الأطفالُ يريدون جباهاً تتعفَّرُ
بالرمل، ولم يعد الفتيانُ يريدون
القمصانَ المقلوبةَ. . .
والشمسُ ـ كما كانت ـ ثابتةٌ
والغيمُ بعيدٌ
حتى لو كان سرابا. . .
لكنْ، سوف يجيء الماء
فنحن الآن غزاةُ

(*) حَلْ: هَلْ.

نعتصرُ الأثداء
ليسيلَ فراتُ
ها قد عُدنا من غزوات المشتى،
وقوافلُنا مثقلةٌ.
عُدنا... تتبعنا نيرانُ حرائقنا، وكلابُ
الجيف... الأنهارُ طمسناها، والآبارُ
طويناها، وحملْنا أعذبَ ماء في قِرَبِ
الماعز ذات الشَّعر الأسود. ما عادَ
لنا ما نفعله في الأرض الأخرى، فلقد
أسرفنا حتى صرنا نافلةً مثلَ غنائمنا.
والأرضُ الأخرى: لا ماءَ ولا شجرٌ.
قلنا: قريتُنا عند التلِّ، وبئرُ أبينا ذاكَ.
وها قد عدنا...
بجوارينا، وحُليِّ سبايانا
وصناديقِ الأبنوسِ
وغلمانِ الخَزَرِ المذعورين...
لكنْ، من أين يجيء الماء
والأرضُ مواتُ؟
من أن يجيء الماء
ونحن، نعمْ، نحنُ...
بُغاةُ؟

عمّان، ٧/ ١/ ١٩٩٧

إغواء وموسيقا

سافري في الفيافي لتخفي السِّفار
سافري في الفيافي التي ليس فيها اعتبار
سافري في الفيافي ولا تسرفي في انتظارِ
القطار المحمَّلِ بالأمتعةْ
والبراميلِ. . .
ميلي على كتف الرملِ
ميلي فهذا القطار
سينبضُ في ذرّة الرملِ من ألف ميلٍ وميلِ
فميلي على كتف الرملِ
ميلي على كتفي. . .
واعرفي في فراشي سواءَ السبيلِ. . .

عمّان، ١٢/ ١/ ١٩٩٧

ربيعٌ مبكر

لك الحمدُ، يا داليةْ
لك الحمدُ، في بردِ كانونَ والجنّةِ الشاتيةْ
لك الحمدُ:
كيف كتبت الرسالةَ في ورْقتين
وأرسلْتها، في هدوءٍ، إليّ؟
. . . .
. . . .
. . . .
لك الحمدُ:
هل أنت مشفقةٌ، مثلَ روحي، عليّ؟
وهل أنت تبكين، في الصمت، يا داليةْ؟
وهل كانت الورْقتان
من الدمعِ؟
أم أنّ عينَيَّ لا تبصران
فأعرفَ، في الخضرةِ البغتة، النبضَ
أعرفَ أنّ الحياة

تظل تدورُ عميقا
وأنَّ الربيعَ يبكِّرُ حتى أراه؟
. . . .
. . . .
. . . .
لكِ الحمدُ، يا داليةْ.

عمّان، ١٣/ ١/ ١٩٩٧

القفّازات

لم يتبقَّ لديَّ اليومَ، ومنذ سنين
مَن سأصافحهُ
في منعطف الشارعِ
ـ لا شارعَ ـ
أو في الحفلة
ـ قد راحت حفلتُنا ـ
ولهذا كانت قفّازاتي.
. . . .
. . . .
. . . .
قفّازاتي
تمنعني أن ألمسَ ما لا يتلامسُ
حقّاً،
والآنَ أفكِّرُ في أن أبتاعَ
لأذنيَّ القفّازات
فلا أسمعُ ما لا يُسمَعُ

أبتاعَ الـ Headphones

مثلاً. . .

. . . .

. . . .

. . . .

لكنْ، ماذا عن عينيَّ؟

إذاً، فلأكنِ الأعمَى!

عمّان، ١٢/ ٢/ ١٩٩٧

محاولة الانفلات

كيف لي أن أسافرَ، هذا المساءَ، إلى طنجةَ؟
(المرءُ يذكر في الليل أبهى نهاراتِهِ)
شارعاً لستُ أعرفُ اسماً لهُ. . .
حانةً لم أزرها،
قميصاً تمنّيتُ لو كنتُ فتَّحتُ زرَّينِ منهُ. . .
. . . .
. . . .
. . . .
الحديقةُ يابسةٌ
والمساءُ هنا وحشةٌ،
والنجومُ التي تتخافقُ، زرقاءُ من بردها. . .
كيف لي أن أسافرَ هذا المساء؟
كيف لي أن أسافرَ، هذا المساءَ، إلى كوستاريكا؟
(يذكر المرءُ في الليل أحلى صداقاته)
لي صديقٌ هناك
يلملمُ أوراقَ ميلادِهِ كلَّ يومٍ

ليقرأ فيها البلادَ التي ما أَحَبَّ. . .
البلادَ التي قد أَحَبَّ،
البلاد التي كلٌّ شيءٍ لديها رماد. . .
كيف لي أن أسافرَ هذا المساء؟
كيف لي أن أسافرَ، هذا المساءَ، إلى غرفتي؟
(يذكرُ المرءُ في الليل أصفى أماكنه)
لم يكنْ لي، إذا ما أردتَ الصراحةَ، بيتٌ ولا غرفةٌ،
غير أني أريد المكان
غرفةً ليس يدخلها غيرُ نبضي
غرفةً ليس فيها هواءٌ كهذا الهواء
غرفةً لا تضاء
غرفةً لا تداهمُها عتْمةٌ
غرفةً في الفضاء. . .
. . . .
. . . .
. . . .
كيف لي أن أسافرَ هذا المساء؟

عمّان، ٦/ ٣/ ١٩٩٧

طاولة

سمكةٌ برونزٌ
ودفترُ يوميّات فارغٌ منذ السنة الفائتة
والأقلامُ. الأقلام. الأقلام. الأقلام
ثلاثون قلماً
لكن، لا واحدَ منها مهيّأ للكتابةِ
أيّ كتابة. . .
الموسيقا مضمرةٌ في أسطوانات الـ C.D المكدَّسة،
ومن الحديقة يدخل ضوءُ نهار شبهِ ممطر.
في طرف النافذة غصنُ ليمون ذو تمرتين:
صفراء
وخضراء،
القطةُ تنظر إلى سمكةِ فخّارٍ
مدلاّة من السقف،
بينما تمثالُ الفخّارِ الإغريقيُّ يواصلُ
قُبلتَه منذ قرون.
. . . .

. . . .

. . . .

نايُ القصبِ يسيلُ بين أناملي.

عمّان، ٦/ ٣/ ١٩٩٧

الدوّامة

الريحُ التي تصفرُ بين الجبال
مثل بواخرَ تتسابقُ في الغرق،
الريحُ التي تصقلُ البردَ مفاجئاً وحادّاً
والتي تردُّ البراعمَ الوشيكةَ
لتنكمشَ في اللحاء
الريحُ التي تطيرُ بلا بذورٍ ولا أجنحة. . .
أيّان ستأتي هدأتُها؟
ربما في الليل،
أو في الغبشِ المنتعشِ فجأةً. . .
. . . .
. . . .
. . . .
لكنها في المسافة الضيقة
بين صُدغي
وباطن كفِّي
ستظلّ تدوِّمُ طويلا
أطولَ ممّا تتحملُ هي. . .
أطولَ مما أتحملُ، أنا، أيضاً.

عمّان، ٨/ ٣/ ١٩٩٧

رؤيا

سوف يذهب هذا العراقُ إلى آخر المقبرةْ
سوف يدفن أبناءه في البطائح، جيلاً فجيلا
ويمنحُ جلاّدَه المغفرهْ. . .
لن يعودَ العراقُ
ولن تصدحَ القبَّرةْ. . .
فامشِ ـ إن شئتَ ـ دهراً طويلا
وادعُ ـ إن شئتَ ـ كلَّ ملائكة الكونِ
كلَّ شياطينه،
ادعُ ثيرانَ آشورَ
عنقاءَ مُغْرِبةً. . .
ادْعُها
وانتظرْ في دخانِ التهاويلِ
معجزةَ المبخرةْ.

عمّان، ٨/ ٣/ ١٩٩٧

المعجزة

كيف يهمي عندنا هذا الرذاذُ الناعمُ؟ الرملُ الذي يمتصّنا منذ قرونٍ ليس يعني عنده الماءُ سوى غفلة شمسٍ. . . نحن لا ندري بهذا الماء، إن جاءَ وإن لم يجئ، الأحداقُ غاصت في عروق الرمل منذ الخَلقِ. هذي آيةٌ أخرى، إذاً. . . فلنحتفظْ بالوقد، ولنحفظْ ـ ولو كنا بلا ذاكرةٍ ـ ما ترسمُ الآيةُ. . .

لكنّ الرذاذَ الوغدَ يهمي. . . ما الذي نفعلُ؟ هذي نبتةٌ قد بَرعمتْ، والشيحُ، حتى الشيحُ يخضرُّ. . . وفي أرض الغضا تومئُ أزهارٌ. لماذا اختلفَ الناموسُ؟ كيفَ اختطفَ الصبّارُ شالَ الأرجوانِ؟

المطرُ الناعمُ يهمي هادئاً، لكننا نختضُّ في السرِّ، وفي أحداقنا الملأى صديداً وقذىً يدخلُ ماءٌ. . . أتُرى نغتسلُ الليلةَ؟ هل يصفو لنا المرأى؟ وهل ننسى غداً ما حدَّث الرملُ،

وما قال الرواةُ

المطرُ الناعمُ يهمي هادئاً،

نحن شيوخٌ

فلنناد الطفلَ. . .

ولنقرأ على أهدابهِ ما تفعلُ القطرةْ!

عمّان، ١٦/ ٣/ ١٩٩٧

البلل

الفتاةُ على موعد. . .
ـ ربما بعد عشر دقائقَ ـ
كان المطرْ
هائجاً يدفعُ السيلَ حتى الرصيفْ. . .
فجأةً تفطنُ البنتُ:
إن مظلّتها (شبهَ صينيةٍ) تقبع الآنَ
ناشفةً عند كرسيّ مكتبها. . .
كيف تمضي الدقائقُ
كان المطرْ
مائجاً
دافئاً مثل موج البحيراتِ في السينما،
والمظلةُ ناشفةٌ عند كرسيّ مكتبها، داخل الدائرةْ
والدقائقُ تمضي. . .
الرصيفُ على حاله،
والفتاةُ على موعد:
تنقلُ الآن أولى خُطاها الخفيفاتِ تحت المطرْ.

. . . .

. . . .

. . . .

أهي واثقةٌ أنها سوف تبتلُّ حتماً،

هنا، أو هناك؟

عمّان، ١٦/ ٣/ ١٩٩٧

في بلدةٍ ثانويّة

الحياة
الهادئةُ هنا، مثل حجر
الممتلئةُ مثل حجر
هذه الحياة. . .
لماذا نتشبثُ بها
إن كان امتلاؤها عصيّاً،
وكان الهدوء، هو، المتاحَ، حَسْبُ؟

عمّان، ١٧/ ٣/ ١٩٩٧

عن اللائي يكتبن «روايةً» مشهورة

إن أنتِ كتبت روايتَكِ الأولى
متناسيةً سيرتَكِ الأولى
خوفاً
أو تعباً. . .
فلماذا هذا العبثُ الفارغُ كلُّهْ؟

دوماً تأخذكِ الكلمات. . .
إلى أين؟
كأنكِ من كلمات،
وكأنَّ حياتَكِ ليست بحياة.
قد تُكتبُ أوراقٌ عن «أسرار» روايتك الأولى
قد يَذكر «س» أنكِ فرجينيا وولف،
حسناً. . .
لكنكِ أدرى منهُ
ومن تلك الأوراقْ
أدرى بتراب روايتكِ الأولى!

عمّان، ١٧/ ٣/ ١٩٩٧

تَسامُح

ليس هذا أوانَ الأغنية الشرسة
فالذين لا يزالون يفركون عيونَهم
لن تصل إلى آذانهم المغلقةِ جيداً بفلِّين الليل.
ثمَّت أشجارٌ قد لا نحبُّها
أشجارٌ مثل النخلة الخاوية
والتوت الفحل...
لكنّ للنَملة ودورةِ الأرض
منطقاً آخر...
....
....
....
السماءُ، ذاتُها، بلا لون.

عمّان، ١٨/ ٣/ ١٩٩٧

بنسيون في جونيه

يحملُ اسماً مألوفاً من أحد القدّيسين
ويطلُّ على الشارعِ
حصناً يفصلُ بين الشارعِ والبحرِ
نوافذُهُ خشبٌ يتآكلُ منذ سنين
وستائرهُ أيضاً . . .
وخزاناتُ ملابسه تتداعى من داخلها مثل مراياها،
متداخلةً وروائحَ ثومٍ
وبقايا ملفوف
ومياه آسنة،
أحياناً أشعرُ أني في غرفة مبنىً آخر . . .
فأطلُّ من الشرفةِ
كي أتأكّدَ أني في هذا النُّزل تماماً:
فالشارعُ ثمّتَ
والحذّاءُ
ودكانُ العطرِ
وبامبو الشرق الأقصى.

. . . .

. . . .

. . . .

في النزل، أرى سيدتين تعدّانِ القهوةَ دوماً
وتقيمان نهاراً في البهوِ،
كراهبتينِ
فإنْ جاءَ الليلُ اختفتا. . .

. . . .

. . . .

كم أزمان تتنفسُ في هذا النُّزلِ،
وكم من أشخاص عبروا،
لم يتّركوا حتى الاسمَ. . .

. . . .

. . . .

. . . .

القدِّيسُ هو الباقي.

عمّان، ١٨/ ٣/ ١٩٩٧

حانة سائقي الشاحنات

كلُّ نبيذِ الأرضِ خَبيءٌ في القبوِ. . .
ولكنكَ لا تشربُ إلا أردأَهُ،
أو كأسَ الريكار بقطعةِ ثلجٍ واحدةٍ
وقليلٍ من ماء.

ستقولُ لمن جاء الليلةَ من إسبانيا:
ما الأخبار؟
وتقول لمن سيكون غداً في النورماندي:
هل تسمع هذا القيثار؟
ما أجملَهُ. . .
لكنّ القادمَ من إسبانيا
والذاهبَ نحو النورماندي
والشيخَ الواقفَ خلف البار
متّفقون على أن يختطفوا من بين يديكَ
امرأةً
جئتَ بها

كي تأخذَ كأساً معها
وتقولَ لها أشياء بلا معنى،
وتُريها الشقّةَ بعد قليل. . .

عمّان، ١٩/ ٣/ ١٩٩٧

على تخوم الرُّبع الخالي

الرملُ الذي لا يفاجئُ أحداً منّا
نحن، أبنائهِ
هذا الرمل يظل يبعث إلينا بعماليقهِ...
تلك القلاعِ
القلاعِ تتحرك سرّاً
في نهارات قصيّة
لتنتصبَ، بغتةً، إزاءَ بساتيننا
أعلى من أعلى نخلة...
إنها قلاعُ القيامة
ولسوف تطلقُ، ذات يومٍ، بوقاتها.

عمّان، ١٩/ ٣/ ١٩٩٧

كاتَلين

تدخلُ شقّتَنا بالضاحية الباريسيةِ
دوماً في آخرةِ الليلِ
وتخرجُ في الصبحِ الأول. . .
لا أعرفُ عنها إلا الاسمَ
وإلا بنتاً من مكناسَ ترافقها أحياناً
لكنْ، تسألُ عنها، أكثرَ. . .
آنَ أصادفُها، خطأً، في المصعدِ
أو في المطبخِ
ـ تدخلهُ كي تشربَ ماءً، حسْبُ ـ
أراها مرهقةً
ذابلةً. . .
وأفكرُ أن أسألَها
في أحد الأيام دعاني رسّامٌ هولنديٌّ
كي نتغدَّى في مطعمه
غيرَ بعيد عن سان جاك.
أنا أعرفُ عن مطعمه، سمعتَهُ الشائنةَ. . .

اجتزتُ المائدة الأولى
وجلستُ.

الهولنديُّ تأخّرَ...

عند البار
وعلى كرسيٍّ عالٍ
متبرجةً
متبذِّلةَ الساقين
عاهرةً بالضبط...
كانت كاتَلين.

عمّان، ٢٠/ ٣/ ١٩٩٧

غيومٌ صباحيّة

الغيومُ صباحيّةٌ:
هكذا يبدأ النملُ يستافُ دربَ المؤونةِ
والقطُّ يبحثُ عن مخبأ
والعصافيرُ عن شجرٍ،
وأنا، الجهمَ،
أبحثُ عن كوّةٍ في الجدار...
....
....
....
كيف تأتي الفصولُ
لتذهبَ؟
قد كنتُ أحسبُ أن الربيعْ
ـ مثلاً ـ
يتداخلُ في العرقِ، كالنُّسغِ في الغصنِ
أو كالمُواء المباغَت
أو صيحة الديك في الفجر،

. . . .

. . . .

. . . .

ها أنذا، مثل ما كنتُ،
لا نبضَ يسرعُ
أو يتطامنُ
لا رقّةٌ من جناح تطوِّحُ بي نحو مَهوى
ولا موجةٌ للغرقْ.

. . . .

. . . .

. . . .

سوف أمضي، إذاً، نحو هُدبي
سأسألُه أن يُطيلَ ـ كما يقْدرُ ـ الغمضَ
أسألُه أن أنام. . .

عمّان، ٢٢/ ٣/ ١٩٩٧

الحكمة

هذه الجبالُ ليست لنا. . .
مكتفيةٌ هي بدروب الماعز
بالإسفندار والعفص والصنوبر
والجوز السخي.
مكتفية بينابيعها وأزهارها
وصيدلية أعشابها،
وفيها من الذئاب ما يكفي. . .
إذاً،
لِمَ نرسلُ إليها جِمالَنا منذ قرون؟
. . . .
. . . .
. . . .
هذه الجبالُ ليست لنا. . .
كنا ظننّا المدافعَ تبلغُها
والسَّمْتيّات أيضاً.
ربما استطعنا أن ندقَّ أبوابَها بالبارودِ

والغاز السّامِّ
ولغة لا يفهمُها حيوانُها،
حسناً...
لكنّ الجبالَ لم تَعُدْ جبالاً.
....
....
....
فلْنكتَفِ بحكمة الأرضِ...
لنقُلْ:
حدودُنا الرملُ والعوسج.

عمّان، ٢٢/٣/١٩٩٧

بابُ البحر

في الشاطئ شبه المهجور
حيث يلوِّحُ بضعةُ صيّادين بعيداً
بالقصب. . .
التفتتْ نحوي امرأةٌ،
قالت:
أنتَ تجيءُ هنا، حين يغيبُ الناسُ،
غريبٌ!
قلتُ:
ولكني أبحثُ في هذا الشاطئِ
عن أصدافٍ وقواقعَ. . .
(تهطلُ أولى قطراتِ المطرِ)
المرأةُ تفتحُ بابَ الشّاليه،
وتدخلُ.
أمضي تحت المطرِ. . .
الصيادون ذوو القصباتِ ابتعدوا،
والشاطئُ خالٍ.

كنتُ وحيداً
أبحثُ عن أصدافٍ وقواقعَ
أبحثُ عن بابٍ
في ذرَّةِ رمل. . .

عمّان، ٢٢/ ٣/ ١٩٩٧

حانة القرد المفكّر في كافالا(*)

«إلى زليخة أبو ريشة»

وحدَها، منسيّةً
في داخلِ الحانةِ
كانت طاولاتٌ أربعٌ.
والطاولاتُ الأربعُ الأخرى أقامت منزلاً
تحسبُه ـ إن شئتَ ـ بالأمتار
بينَ النار في الموقد حيثُ السمكُ الأزرقُ،
والأشجار
بين الباب والشارع.
لم يبقَ رصيفٌ كي تسميه رصيفاً:
إنّ هذي الطاولاتِ الأربعَ اخصرَّتْ بهِ...
فلْتأتِ بالنجمِ
وبالساعةِ

(*) كافالا، بلدة يونانية على بحر إيجة، تقع في وسط المسافة بين اسطنبول وسالونيكي بمنطقة مقدونيا.

وبالقنديلِ
كي تعوي قطاراتُ الضواحي. . .

هكذا، نجلسُ في الشارع.
عند السور كان العاشقان انتهيا من لعبة الموعد.
في البُعد تضيءُ القلعةُ البحرَ
وتُقصي الشاحناتُ/ الحاوياتُ، الليلَ:
اسطنبول
اسطنبول
. . . .
. . . .
. . . .
في الحانةِ كان القردُ سكرانَ
وكان السائقُ استنفدَ قنّينتَهُ
رائحةٌ من سمك يُشوى
وهذا الأخطبوطُ،
القردُ يستولي على لافتة الحانة
سُبّابتُه في صُدغه
عيناه حمراوان. . .

ما أجملَ أن يستيقظَ القردُ صباحاً
هابطاً في وثبة

من صورة الأخرقِ في لافتة الحانة
ما أجملَهُ
قرداً بلا سُبّابة تحفرُ في الصُّدغِ
وما أجملَهُ
يتمشّى مشيةَ السكران طوالَ الليلِ
كي يجلسَ في مقهىً على البحر
لكي يرتشفَ الريحَ التي تنضحُ بالملحِ
وكي يأكلَ موزاً
ثم يرمي القشرَ في الماء إلى النورسِ. . .
ما أجملَهُ
يتركُ مقهاهُ
ويمشي مَرَحاً بين شبكِ الصيدِ،
هل يقفزُ في المركبِ؟
هل يمضي مع العَبّارةِ الأولى إلى تاسوس(*)؟
. . . .
. . . .
. . . .
والليلُ إذا جَنَّ؟
وذاك البيتُ في لافتةِ الحانةِ؟

(*) تاسوس، جزيرة ذات تاريخ، يفصلها مضيق عن البلدة.

. . . .

. . . .

. . . .

سُبّابتهُ عادت إلى الصُّدغِ،
فعاد القردُ مرسوماً على لافتةِ الحانةِ،
سُبّابتهُ في صُدغِهِ
عيناه حمراوان. . .

عمّان، ٢٦/ ٥/ ١٩٩٦

سعادة

مِلءَ عينيكَ:
ثَمَّ شجيراتُ وردٍ
وأغصانُ ليمونةٍ. . .
. . . .
. . . .
. . . .
وبيوتُ الحجَرْ
ـ البيوتُ التي كنتَ تكرهُ ـ
تصعدُ، أعلى فأعلى
مبللةً بالمطرْ.
ليس يكفي التأمُّلُ. . .
ما أسعدَ المرءَ يفتحُ نافذةً
في الصباحْ!

عمّان، ٢٤/ ٣/ ١٩٩٧

احتضار

حين تبزغ تلك القرى
فجأةً
في الظلام،
حين يعلنُ فانوسُ مسجدها
أنها ههنا، حسبُ. . .
تلك قرانا
التي لا ترانا
قرانا التي سوف نجتازها عابرين
قرانا التي قد عرفنا سواها
قرانا التي يدّعيها سوانا
قرانا التي آذنتْ بالمغيب. . .

عمّان، ٢٤/ ٣/ ١٩٩٧

أغنيةُ الأعمى

أنا أحمدُ الأعمى
أن الطوّافُ في الطرقات
والساري مع النجم الذي في جبهتي

أنا سيِّدُ الأصوات
أعرفُها
وأعزفُها
عصايَ جواديَ الأبهى
ومركبتي خُطاي
ورِحلتي أوْبات.
أنا أحمدُ الأعمى
أدقُّ، سدىً، على أبوابكم
لا تفتحوا...
فأمامي الآفاقُ مشرعةٌ
وأكواخُ القرى
وأنامُ، مثل الطفل، بين أرانب الغابات.

أنا أحمد الأعمى
ظلامي واضحٌ
أتلمَّسُ الأشياء فيهِ
كأنّ أصابعي في خُصلةِ امرأةٍ. . .
وكنزي في يديّ:
طفولتي وحدائقُ الألوان
والفتيات. . .

عمّان، ٢٥/ ٣/ ١٩٩٧

إحساس

البردُ خفيفٌ
يتسلّلُ بين ذراعيّ. . .
سأغمضُ عينيَّ
لأستقبلَه وحدي.
إني ألمُسُ هذا البردَ
يسيلُ
قليلاً فقليلاً
ويدغدغني. . .
يُسقط في ماء شراييني
ذرّات من ثلجٍ
ويهدهدني
لأموتَ سعيدا. . .

عمّان، ٢٥/ ٣/ ١٩٩٧

يوميّات أسير القلعة

(٢٠٠٠)

محمد مهدي الجواهري

ـ ٢ ـ

من مَشْفى الشامِ إلى النجمةْ
ومن النجمةِ حتى بغدادْ
دربُكَ مكتنزٌ بالأَوراد
وقميصُكَ هذا القطنُ
سترفعُه حتى دجلةَ كوكبةُ الأحفادْ

أنّى تكونُ لنا عيناكَ أيها النسرُ النحيلُ؟ عيناكَ اللتان تشتفّانِ البروقَ من رَوثِ الجواميسِ. . . عيناك اللتان تمسحان القرونَ الأربعة عشرَ في خِطفةِ المستريحِ؟ أيةُ أرضٍ هذه يا أبا فرات؟ لقد فقأوا عينيّ زرقاءِ اليمامةِ فلم تمنحاهم غيرَ ماءٍ أسودَ. . . هذه الأرضُ ليست للرؤيا يا أبا فرات. وأنتَ الذي مسحتَ القرونَ كما بقطعةِ لَبّادٍ كُرديّ تعرف هذا. تعرف أن خشبةً حَملَها شاعرٌ أربعين عاماً، ستكونُ محمولةً على كتفيكَ لمئة عامٍ. . . وكتفاكَ نحيلتان يا أبا فرات. كتفاك نحيلتان، لكنّ ذراعكَ ما ضاقتْ بنازلةٍ، كأنّ أناملَكَ ـ حيثُ القلمُ ـ عروقُ الجِنَّ. كأنّ ما تكتُبه يندفعُ صُعُداً.

كأنَّ المدادَ نُسْغٌ لقفصِ عظامِكَ أوّلاً.

أوّلُ ما رأيتُ في عينيه كان البرقَ في الغابةِ. . .
أغمضتُ أنا عينيّ،
أغضيتُ طويلاً، جالساً في آخر الغرفةِ
كم فكَّرتُ:
هذا الرجلُ الفاتنُ، مفتونٌ يبصرَ ما لا يبصرُ الناسُ،
ومفتونٌ بأن أتبعه أيضاً. . .
أهذا البرقُ في عينيه ما يخطفني
حتى أرى في آخرِ الغابةِ
أعوادَ الحريق؟
كالنيزكِ المنقضِّ تستعرُ
بالنور: أنتَ النارُ والحجرُ
أشعلتَ دجلةَ إذ أقمتَ بها
بيتَ الشُّراة، فزَمزَمَ المطرُ

ـ ٢ ـ

من مَشْفى الشامِ إلى النجمةْ
ومن النجمةِ حتى بغدادْ
دربك مكتنزٌ بالأَوراد
وقميصُكَ هذا الصوفُ
تُبلِّلُه من دجلةَ كوكبةُ الأحفادْ

لستَ المستريحَ إلينا، نحن مُسْتقيك وسُقاتِك، لستَ المستريحَ إلينا: نحن لن نمنحكَ شيئاً. قد نمزجُ لكَ الفودكا بالفلفلِ والملحِ والطماطمِ السائلةِ. قد نغنِّيكَ قصائدَك. قد نطرقُ بابَكَ في مَوْهِنِ الليل. ولسوف تفتحُ لنا. سوف ندخل غرفةَ الشاعرِ في أقصى الحديقةِ، لنراك وحيداً. سنُنادمُكَ. لكننا مُغادرون. إذاً، أنت لنا الملاذُ. وأنت؟ أيُّ ملاذٍ لك في مَوْهِنِ الليل؟ البحتريّ الذي تحفظُ؟ أم أبو تمّامٍ الذي يراوغكَ؟ أم المتنبي الذي تراوغ؟ أم الموت؟ في لحظةٍ ستقول لنا: اخرجوا يا زوّارَ الليلِ المنتصِفِ. ولسوفَ نمتثلِ لأمركَ. لكنّ خطوتَنا الأولى خارجَ حديقتكَ ستعيدنا إلى الزاويةِ السِّريةِ في حديقتكَ. ماذا ستفعلُ أيها الشاعرُ؟ نحن عاجزون عن أن نقولَ مِثلك:

ليتَ السماءَ الأرضُ...

نحن عاجزون عن أن نقولَ مِثلك:

ذئبٌ تَرَصَّدني...

*

أولُ ما سمعتُ منه: الهمسُ مبحوحاً.
غريبٌ أن أرى في هذه اللحظة ما تكنزُهُ البُحَّةُ
في صوتِ أبي فراتِ:
ربما كان على النهر مُسَنَّاةً
أميراً في فلاةٍ
نَيْسَماً في الشِّعبِ
أو مقهىً بباريس،

ومن يدري. . .
لعلَّ المتنبي يحتبي، سأمانَ في مقصورةِ البُحَّةِ
يستأني الوثوب. . .
لكَ ثورةُ العشرين، أوّلُها
قمرٌ، وآخرُ عهدها سَقَرُ
هل كان أحمدُ في شبيبتهِ
يختالُ مثلكَ، أمْ هو القَدَرُ؟

ـ ٣ ـ

من مَشْفى الشامِ إلى النجمةْ
ومن النجمةِ حتى بغدادْ
دربك مكتنزٌ بالأَورادْ
وقميصُكَ هذا الصخرُ
ستحمله حتى دجلةَ كوكبةُ الأحفادْ

وبغداد بعيدةٌ يا أبا فرات. بغداد بعيدة عن بغداد. وماؤها لم يَعُدْ خيرَ ماء. إنه يجري تحت جسورها أُجاجاً. ها أنتذا في مقبرة الغرباء، تُلملمنا حولك. التربةُ ستكون بستاناً. روضةَ أُباةٍ ومساكين وشعراء. مهاجرينَ على الوثقى وأنصارٍ. ها أنتذا في مقبرة الغرباء تنقل خُطاك الخفيفات. ليلٌ كافرٌ يا أبا فرات. إلى أين تمضي؟ إلى أين تمضي بنا؟ تركت لنا، أيها الشاعرُ، ما لا نُطيقُ: لغةً عرفتَها ونحنُ جاهلوها. وأرضاً سكنتَها ونحن مُفارقوها. ومعاصيَ ارتكبتَها

ونحن لها هائبون. تَقِيَّتُكَ فضيحةٌ، وتقيَّتُنا سكونٌ. أيّانَ سنمتثلُ لك، إذاً؟ لقد تركتَ لنا ما لا نُطيقُ. تُرى، ماذا سنفعلُ؟ كيف لنا أن نكونَ، مثلَكَ، مُعارِضينَ، قرناً كاملاً؟ من فيصلٍ الأول حتى موبوتو الثاني، وأنتَ المُعارِضُ. أنتَ الشّعر المعارِضُ. ونحن؟ نحن المهيئين للفسادِ في كلِّ لحظةٍ، نحن الملولين، مقلّبي السُّتراتِ، ذوي المسافاتِ القصيرةِ كأنفاسنا، كيف لنا أن ننتسبَ إليكَ ـ ولو ولاءً ـ أيها الشاعرُ المعارِضُ لمائة عام؟ وليكن!

لتكنِ الأُمثولةَ أو المثلَ.

لتكنْ حاملَ لوائنا إلى النار...

لتكن المعصيةَ العظمى في زمنِ الامتثال.

*

أولُ ما أخذتُ عنه: الغفلةُ العظمى

كأنَّ المرءَ في الخيط الذي يَفرُقُ بين المَدِّ والجَزْرِ

رهيفاً

ثابتاً في قلقٍ

ملتمعاً... يخْفى ولا يخْفى

فإن داهمَهُ الموجُ مضى في لعبةِ الإسرارِ

كي يعلنَ أبهى لحظةٍ بعد قليلٍ

لامعاً

يَفْرُقُ بين المدِّ والجزرِ

كأنَّ الغرَقَ الأرهفَ مرساةُ القلقْ.

نمضي لكي نمضي... ومنهلُنا

ماءُ الثمادِ، ورَحْلُنا النَّمِرُ
نحيا حياةً لا يليق بنا
إلا السبيلان فيها: الطُّهرُ والخطَرُ

ـ ٤ ـ

من مَشْفى الشامِ إلى النجمةْ
ومن النجمةِ حتى بغدادْ
دربك مكتنزٌ بالأَورادْ
وقميصُكَ هذا العَلَمُ الوطنيُّ
ستلبسُه حتى دجلةَ كوكبةُ الأحفادْ

دمشق، ١/ ١١/ ١٩٩٧

قلعة الحصن

أسيرُ إلى القلاع، هُنا، وهَنّا، ناسياً ثلجَ الوريدِ مقبِّلاً قَدمَ الوليد، أجيءُ نحوَ الصخرِ من قِدَمي، أُثبَّتُ في متون حُزوزهِ قَدمي. أقولُ: لعلَّني أرقى. وأصعدُ، خطوةً في إثر أخرى، شهقةً في شهقةٍ، والخندقُ الدوّارُ يسألني: لماذا جئتَ؟ أسألُهُ: لماذا جفَّ ماؤكَ؟ لو تُراهُ مضى ليسأَلني: لماذا جفَّ مائي؟ الحندقُ الدوّارُ لم يبرحْ مكاناً كان فيه منذُ ألفٍ، إنما الأمطارُ لم تهطلْ. . .

أحقاً صار هذا الخندقُ الدوّارُ جسراً للمغيرينَ؟ السّماءُ سترتمي في لحظةٍ. . . ستكون سقفاً. أنتَ لن تُبدي سوى سبّابةٍ مرفوعةٍ حتى تُلامسَها. . . وكان الخندقُ الدوّارُ أخضرَ، قاعُه المفروشُ بالأعشابِ والدُّفلى وأكياسِ اللدائنِ كان يدخلُ في متاهات القرى وسرائرِ الأبراجِ. أحياناً تُدلِّي غيمةٌ أثداءها ليظلَّ هذا الخندقُ الدوارُ مَغْنىً. قد يمرُّ الماعزُ الجبليُّ، والأعشابُ تثْبتُ في الصخور كصبغةٍ سِرّيةٍ. قد تفتح الأزهارُ في آبٍ مظّلاتٍ بلا ظلٍّ، فيأتي النحلُ. . . أهلاً، لا خديعةَ. . . أيُّهذا الخندقُ الممتدُّ بين الوهمِ والوهمِ: انتظرْني كي أوازنَ خطوتي. مترنحاً سأظلُّ، مأخوذاً بأحجارٍ تُزلزلُ وقفتي. أحجارُكَ الأولى التي كانت تدافعُ عنكَ صارتْ مَنبِتاً لمحيطِ أكواخٍ. وفلاّحوك صاروا الجندَ. جُندُكَ أصبحوا متعهِّدي خيلٍ

وماشيةٍ. ولكنّ الخنادقَ لا تصيرُ سوى خنادقَ. ربما انطمستْ وضاعتْ تحتَ أتربةِ العواصف والقرونِ، وربما نسي الذين بقربها حتى خطوطَ القُربِ... لكنْ سوف يأتي اليومُ، يأتي يومُها، فتهبُّ ناصعةً لتدفعَ عن نضارةِ وجهِها الأسمالَ والأزبالَ والأكياسَ...

آن لها،

لكل خنادق الأحياء،

أن تحيا...

*

أتعرفُ كيف يبدو البرجُ في الفجرِ؟ السماءُ تكونُ صافيةً، وغامضةً قليلاً. ثَمَّ ضوءٌ واثقٌ من لا مكانٍ، والسّماءُ تظلُّ صافيةً وغامضةً، وهذا الضوءُ يبدو ضائعاً، يا فجر... أين الفجرُ؟ في مثل الفُجاءةِ كان رأسُ البرجِ متّقداً، وكان الضوءُ يأخذُ شكلَهُ...

والضوءُ رأسُ البرجِ:

قَرْنَصةٌ وفُوضى

مِزْغلٌ للشمسِ

متراسٌ يصوِّبُ نحو كونٍ غائبٍ...

قد يهبط الفرسانُ من سفنِ الملائكةِ، الحدودُ قريبةٌ حتى الملامسةِ، الحدودُ بعيدةٌ حدَّ الجنون...

أهلَّةٌ في الماءِ

صُلبانٌ على الأكماتِ أو بالعكسِ.

هذا الضوءُ، هذا الضوءُ هذا الضوءُ...

رأسُ البرج مشتعلٌ

وعند القاعِ، خلف الخندق الدوّارِ، في «الموتيل»، تحت مُلاءةٍ في غرفةٍ خرقاءَ بـ «الموتيل»، كان فتىً يقولُ لدُميةٍ: إني أحبُّكِ.

يهبط الفرسانُ. سِيفُ البحرِ يُلمَحُ عند رأسِ البرجِ. ما أبهى طرابُلُسَ الخفيّةَ. في السّفوحِ تغادرُ الأشجارُ مَنْبِتَها، وترحلُ في فضاءٍ أخضر... حتى الدروبُ تصيرُ في المَهوى خيوطاً كان رأسُ البرجِ يُمسكها، يُدَلِّيها، ويرفعُها، كما شاءَ.

المدافعُ لم تعدْ في البرجِ...

هل رحلتْ مع السفنِ التي رحلتْ؟ أو انصهرتْ لتغدو بين أيدينا نقوداً فضّةً، أمْ أنَّ أغنيةَ المدافعِ لم تكن قد قعقعتْ بعدُ؟

الثلوجُ تلوحُ في القمم المحيطة... غيرَ أنَّ البرجَ يلبسُ عُريَهُ، ويظلُّ مثلَ الذئبِ أغبرَ...

هدهديني كي أنامَ:
الثلجُ أثقلَ لِمَّتي
والثلجُ أثقلَ خطوتي
والثلجُ غلغلَ في عروقي ماءَهُ ودماءَهُ
والبرجُ يدعوني لأصعدَ نحوَهُ،
البرجُ يدعوني لأصعدَ نحو صمتي
حيثُ الطيورُ السُّودُ...
وووووو...

*

رأدَ الضحى، مُتَلفِّعاً بالبردِ والجلمودِ، أدخلُ قاعةً حجريةَ

الأقواسِ. أعمدةٌ خَبتْ تيجانُها فوقي. وتحتَ خُطاي أشواكٌ معفَرةٌ، أرى أسدينِ يرتفعانِ عندَ المدخلِ العالي، ويَمَّحيانِ مُرتبضينِ.. غيماً مُبحراً يجتازُ أروقةً ويمضي في سماءٍ حرَّةٍ.. شجراً بعيداً. شِبهَ سربٍ من يمامٍ. تهدأُ الأنفاسُ. أغمضُ مقلتيَّ للحظةٍ: أهلاً! يعودُ الصوتُ: أهلاً.. لن... لن... لن... لن...

وأهتفُ: آهِ، يا سربَ اليمامِ... يمامِ... مامِ... مِ...

كأنّ يدي ستمسكُ خيطَ صوتي من نهايتهِ...

أمدُّ يدي

يديَّ،

فألتقي روحي...

سلاماً... مَن؟ مَن؟ من؟ من؟

ومن بابٍ بأقصى القاعة الحجريةِ، انفتحتْ سماءٌ وانجلتْ. في الأفق أجنحةٌ تسدُّ الأفْقَ. تعلو عندَ بابِ القاعةِ الحجريةِ الضوضاءُ. يأتيني ملائكةٌ بأجنحةٍ، وعمّالٌ بأجنحةٍ، وفلاّحونَ في أثوابِ ريشٍ. أغمضُ مقلتيَّ هنيهةً: أهلاً بكم! كم... كم... لَكَم غِبْتُمْ!

تعبتُمْ في الطريق؟

وهل ظمئتُمْ؟

إنّ في كفَّيَّ عيناً سلسبيلاً...

أم تُرى قد مسَّكُمْ ضُرٌّ؟

سأفرشُ كلَّ أضلاعي لكمْ...

لكنْ أقيموا!

أمسح الوَعْثاءَ عن أقدامكم،
وأقبّل الأيدي لو استلمتْ طعامي.
لن ترحلوا!
سنبيتُ ليلتَنا هنا.
لا تعبأوا بالبردِ!
سوف أجيء بالأغصانِ والأعوادِ
سوف أجيء بالسروِ العظيمِ
وبالجريد الهشِّ.
جذعُ النخلةِ استلقى ليمسي الجمرَ...
مهلاً!
سوف نوقدُ نارَنا
ستكون قلعتُنا منارَ الخابطينَ
لقد غدونا نارَنا... نا... نارَنا... نا... نا...

١٩٩١/١/٢٥

حدائق

كانت لي، غير بعيدٍ عن أهلي، أشجارُ حديقةْ
في الليل أُلملمُها
وألوِّنُها
وأدورُ بها، أبعدَ عن أهلي
كي أصنع في الليلِ
بوّابةَ غيمٍ
تتوسَّطُ سوراً أبنوساً
يحرس أشجار حديقةْ. . .
كانت لي، في تونس، شبهُ حديقةْ
زُلّيجٌ أندلسيٌّ
وممرٌّ زجاجاتِ نبيذٍ فارغةٍ
أغرسها في التربة حتى النصف
. . . .
. . . .
. . . .
قالت من زارتني يوماً:
هل يثمر زرعُكَ؟

قلتُ لها: ما أجملَهُ، لو كنتِ النصف!
كانت لي، في عمّانَ، حديقةْ
من صبّارٍ
في أحجارٍ،
من أحجارٍ
في صبّارٍ...
كانت ـ حتى لو أنكرها الناسُ ـ حديقةْ.
لكنّ الصبّارَ ـ إذا شئتَ ـ عدوُّ الماء
والأحجارَ ستنهارُ إذا ما سمعتْ موسيقا الماء...
إذاً... ماذا أفعلُ؟
هل يدخلُ في عمق البستان سوى ماءٍ وحديقةْ؟
كانت لي، في الضاحية الباريسيةِ
تحديداً في Aubervilliers حديقةْ
أتذكَّرُها الآن
كما أتذكَّرُ نفسي:
غصناً من نبتٍ يتسلّق حتى السقفِ
لينهدّ
على الأرضيةِ
خوفَ البرد...
كانت لي، وأقولُ ستبقى، في الجهة اليسرى حيثُ القلبُ
حديقةْ...

الأرض بها خضراء
تماماً مثل حدائق كل الناسِ
ولكنّ الأزهار بها حمراءُ تماماً. . .
وهيَ الوردةُ
والنجمُ
وماءُ الوردِ
وقصةُ هذي الدنيا. . .

دمشق، ١٩/ ١٠/ ١٩٩٨

المستحيل

هذه أشجارنا اللائي بلا أسماءَ. . .
هل نسألُها، في السرِّ، إن كانت ترانا
آنَ نستروحُ غصناً في صباحٍ ماطرٍ
أو بعدما ينتصفُ الليلُ؟
وهل تسمعُ ما تهجسُ في الأرض خُطانا؟
نحن نمشي
دون أن نمشي،
وهذا الشجرُ الثابتُ يمضي في السماواتِ
وفي الأرضِ
. . . .
. . . .
. . . .
مع الأعوام، غاضتْ في الشرايين، الينابيعُ
وصار الدمُ فحماً،
غير أن الأرض لن تتركنا. . .
الأرضُ التي نحن هجرناها
ستُعطي، مرةً أخرى، ندىً من نُسْغها

تَزرِقُه فينا
لعلَّ الغصُنَ اليابسَ في أطرافنا يخضرُّ،
أو يحمرُّ في لِمّاتِنا التبنُ
. . . .
. . . .
. . . .
لعلّ الروحَ تأتي. . .

دمشق، ٤/ ٥/ ١٩٩٧

القيامة

من الـ B52 تأتي القنابل، ثم تُفْرِغ بيضَها
في أنفنا المجدوعِ، نحن سلالةَ الأحباش والزُّطّ.
السِّباخُ كعهدها من ألف عامٍ
نحن نكسحُها،
ونحن الزطَّ...
لم يترك لنا صدّامُ ما نخشاهُ
أو نخشى عليه:
بيوتُنا نَهْبٌ له
ونساؤنا نهبٌ له
وصغارُنا الحمقى فدائيّوهُ...
....
....
....
فلْتأتِ القنابلُ
ربما جاءت قيامتُنا مع الـ B52
وتَشَوَّشِ الدنيا

١٩٩٩/١/١١

في الفلبين

فَحْلُ الجاموس
يسحبُ في سرعةِ سنتيمترٍ بالساعةِ
أطفالاً
وغِراراتٍ
وصناديقَ مهشَّمةً. . .
وعلى جنبيَ الدربِ
مياهٌ ستكون حقولاً بعد رحيلي
يتمايل فيها ما سوف يكون صحونَ الرزّ. . .

دمشق، ١٩٩٩/١/١٠

البقيع

مختالاً
أمشي خلفَكَ يا جَدِّي
مثلَ خروفٍ. . .
لكنكَ بعد قليلٍ تدخلُ في المسجدِ
تتركني وحدي
مثلَ خروفٍ ضَلَّ،
فأدخلُ في المسلخِ
مختالاً أيضاً. . . منطبقَ الجفنين.

دمشق، ١٠/ ١/ ١٩٩٩

ساراماغو

لن أتعلَّمَ من كل رواياتك شيئاً
وأكيداً أنكَ لستَ معلِّمَ أخطاءٍ
ولهذا سنسيرُ معاً
لا نتعلم شيئاً
ونُعَلِّمُ أن لا نتعلَّمَ شيئاً
مُتعتُنا
أن العالمَ ما زالَ ـ كما لم نعهدْهُ ـ بسيطاً. . .

دمشق، ١٠/١/١٩٩٩

استمطار

. . . وإذاً،
لم يسقط الثلج الذي كنا انتظرناه مساءَ البارحةْ
ربما كان علينا أن نرى ما تكتبُ المرآةُ. . .
لن تحمل قضبانُ الهوائيات أنباءً،
ولن تخبركَ القطةُ
قد تعني مناقيرُ اليمامِ الشرفةَ الأولى
ولكنك قد أغلقتَها. . .
منتظراً أن يسقط الثلجُ،
فلم يسقط. . .
وها أنتَ: تدنِّي سُحباً
تسحبها من مركب الريح بخيطٍ واهنٍ،
تمضي بها رأساً إلى الغرفةِ
تلتفُّ بها. . .
. . . .
. . . .
. . . .
ينهمر الثلجُ!

دمشق، ٧/ ٢/ ١٩٩٩

النسيان

هكذا
قبل أن تفتح المئذناتُ مكبِّرَ أصواتها
قبل أن تفتح الطيرُ أجنحةً
قبل أن تخرق العجلاتُ زجاجَ النوافذِ
في هدأةِ الفجرِ
قبل الرحيل. . .
انتظرتُ السلالمَ
تلك التي سوف تهبط بي نحو لا أين،
تلك التي سوف تصعد بي نحو لا أين. . .
أين الرياحينُ
أين المآذنُ تنعسُ مقلوبةً في المياهِ
الطحالبُ أصواتُها
والسلاحفُ تلثمُ أقمارَها
والسمكْ
يتقافرُ. . .
. . . .
. . . .

. . . .
ما أبعدَ العِرْقَ في الصُّدْغِ
إن كنتَ تختارُ، فاخترْ:
تديرُ رصاصَ المسدس في مخزنٍ أنتَ أفرغتَهُ
أمسِ، واليومَ تُفرغه
ثم تنسى. . .
لتنسى رصاصتَكَ الواحدةْ!

دمشق، ١٣/٨/١٩٩٨

الزائر

لم اسمعْ بكَ من قبلُ
ولم أعرفْكَ
ولم أفتحْ لك حتى نافذةً قد تدخلُ منها
(أبوابي مغلقةٌ)
وإذاً . . .
كيف سمحت لنفسكَ أن تتقصَّدني
أن تستروح أنفاسي
وتحاول أن تقرأ ـ عن بُعدٍ ـ أوراقي
وتخبُّطَ أوردتي
وخرائطَ أعراقي؟
كيف سمحت لنفسك أن تتسلل في الليلِ
إلى مكتبتي
لتقلِّبَ مخطوطاتٍ مترْبةً
ومُسَوَّدةً كُتبتْ قبل ثلاثة أيامٍ
كي تسخر بي؟
طبعاً، أنا أعرفُ أشياء

وأكتمُ ما أعرفُ. . .
هل تعرف هذا؟
مثلاً: إنك جئت من المستقبل
من قمرٍ مجهولٍ. . .
لكنك تسخر بي
وتحاولُ أن تقرأ ـ عن قُربٍ ـ أوراقي
وتخبُّطَ أوردتي
وخرائطَ أعراقي. . .
. . . .
. . . .
. . . .
وإذاً؟
هل أفتحُ نافذتي؟

عمّان، ٢٨/ ٧/ ١٩٩٩

ذكاء

السُّلحفاةُ
لا تخافُ من الدنيا سوى طيشِنا،
كأنْ نُلقمَها تمرةً بصُنَّارةٍ
أو أن نرى درِعَها لنا دَرْقةً
أو نشتوي لحمَها على شاطئ البحرِ. . .
السُّلحفاةُ
لا تفكِّرُ
لكنها ترى العواصفَ حتى قبل أن تعرف الكلابُ بها،
فَلْنلتفتْ نحو بيتها!
والسُّلحفاةُ
الجميلةُ، اتخذتْ مسكنَها قبوَ الحديقةِ،
الناسُ تأتي
والسُّلحفاةُ تختفي.
الناسُ في البردِ
والسُّلِحفاةُ في الدفءِ.
السُّلحفاةُ
قبلنا عرفتْ ملمسَ مائها في الترابِ. . .

عمّان، ٢٨/ ٧/ ١٩٩٩

آلةُ الزّمن

لو أني مع H.G.Wells رحلتُ
بمركبة الزّمنِ. . .
لو أني فعلاً أمضيتُ
لياليَ
في المنأى
ورجعتُ
بوردةِ جوريٍّ أو غصنٍ. . .
هل ستصدّقني
أنتَ؟
وهل في البصرةِ، أو في مُرّاكشَ،
مَن سيصدِّقني؟
. . . .
. . . .
. . . .
أنا أمضيتُ
هنا

أكثرَ هذا القرنِ.
أُطَوّفُ بين مزارعكم
ومنازلكم
ولَكَمْ جئتُ بوردٍ وغصونٍ
ولَكَم عدتُ بأمواهٍ وعيونٍ
لكنْ... ما صدَّقني
أحدٌ منكم.
ما كلّمني
أحدٌ منكم.
لم يمنحني أحدٌ، بعد سِفاري،
حتى قطرةَ ماء...

عمّان، ٢٩/ ٧/ ١٩٩٩

القافلة

أوغلتْ قافلةٌ في الرملِ
حتى لم تعدْ تبصر غيرَ الرملِ
قال التاجرُ:
«الدّيباجُ والسَّبْيُ خفيفانِ
سننجو بهما».
قال الهلاليُّ الذي يحملُ سيفاً:
«إن من ضَيَّعَنا في الرملِ
ضاعتْ رأسُه في الرملِ...»
قال العبدُ:
«ما المعنى هنا؟»
قال الدليلْ:
«مستحيلٌ لكَ أن تطلبَ في المأزقِ غيرَ المستحيلْ»...

عمّان، ٢٩/٧/١٩٩٩

المصير

لن يهطل المطرُ، العشيَّةَ
لن ترى القططُ الشريدةُ سقفَها
لن يمسيَ القرميدُ كالخمر العتيقةِ. . .
. . . .
. . . .
. . . .
نحن لن ننجوا من الصحراء
حتى لو نزعْنا جِلْدَنا
حتى ولو نمنا، طويلاً، تحت أَطباقِ الجليدِ
. . . .
. . . .
. . . .
ستنطوي حِقَبٌ
وتأتي بعدها حِقَبٌ
وسوف تُلائمُ الدولُ العجيبةُ طبعَها. . .
لكننا سنظل في الصحراء:

نفتحُ مقلةً مقرورةً في الفجرِ
مبتهجين
فالصحراءُ ماثلةٌ بباب الكهف حيث ننامُ
ظمأى مثل ما كانت،
ونحن لها الفدائيّون
نمنحها بقيّةَ ما تَدافَعَ من دمٍ فينا
لتغمرنا بغيضٍ من رمال اللّهِ
والأَشباهِ
والآهِ الأخيرةْ.

عمّان، ٣٠/ ٧/ ١٩٩٩

تدقيق

قال الرسولُ:
«عساكَ تذكرني!»
فقلتُ: «عسى...»
وأطبقتُ الكتابا.
«إن كنتَ أخطأتَ السؤالَ
فكيف تنتظر الجوابا؟
أنا منذ حَلَّ المَحْلُ
أسملُ مقلتي بيدي... لكي أعمى
عن الذكرى وقد أضحتْ يبابا.
....
....
....
لي أن أرى كفِّي
وأقرأَها
فأحسِبَ ما أحاولُه حسابا...

عمّان، ٣١/ ٧/ ١٩٩٩

الغياب الأخير

لا بدَّ لنا في هذا اليومِ
ونحنُ حفاةٌ أشباهُ عراةٍ
مسترخون على الرمل الرطبِ
بشاطئ سنغافورةَ ـ
أن نسألَ عمّا جاء بنا، أمسِ
إلى هذا الشاطئِ. . .
عمّنْ مدَّدَنا أشباهَ عُراةٍ
وحُفاةً
في الرملِ المسحورِ. . .
تُرى.، أَلَدينا مُهلةُ أن نسألَ
أو حكمةُ أن نسألَ؟

. . . .

. . . .

. . . .

نسوتُنا أقبلنَ
مع الطبلة والناي وخمر الرزِّ
وثمّتَ من يأتي أيضاً
بأسِرَّتهنّ القصبِ. . .

عمّان، ٣١/ ٧/ ١٩٩٩

غازٌ سامٌّ

لم يعد القتلُ المحضُ
ليبهجَ طاغيةً . . .
لن يُمتعه مرأى المخنوق بسلك الهاتفِ
والميّتِ نزْفاً أسفلَ مكتبه
والمقتولِ بقنبلة في غرفة حمّامٍ
والمتيبّس من جرعة شايٍ
والذائب في حوض الكبريتيك
وذاك الطافي وسْطَ بحيرةِ أسماكٍ
وإلخ . . .
وإلخ . . .
. . . .
. . . .
. . . .
الطاغيةُ
الليلةَ
مبتهجٌ
بالسرّ :
سيضغط هذا الزرّ . . .

عمّان، ٣١/ ٧/ ١٩٩٩

ثِمار

يا سَعْدَ ما. . .
أنتِ اختطفتِ فريدةَ التفّاحِ
ثم عضضتِها
وركضتِ حتى غبتِ في دوّامةٍ من زئبقِ
وتركتِ لي
الأحلامَ
أجلسُ كلَّ ليلي
أمشطُ الصفصافةَ البيضاءَ
أو أستقطرُ الدُّفلى
وأحياناً أدورُ مدوَّخاً
أسْتَمطرُ الأغصانَ. . .
. . . .
. . . .
. . . .
كم تقسينَ!
في كفِّي سفرجلةٌ
وفي الأخرى التي تمتدُّ حنظلةٌ
لماذا؟

عمّان، ٣١/ ٧/ ١٩٩٩

REPONDEUR

ليس في الفندق التونسيّ
الكثير. . .
منظرٌ ليس للبحرِ
أو مَطعمٌ في المساء بلا مطعمٍ،
ليس في الفندق التونسيّ
سوى مُزدَهىً للنبيذ. . . إذاً!
قد فهمتِ استغاثةَ ليلي المجفَّفِ:
يا آن
يا آن
باريس!
باريس!
لم تستجبْ ليَ
إلاّ مسجِّلةٌ للجواب!

١٩٩٩/٧/٣١

يومٌ عاديّ

يجلس كلَّ صباحٍ في وسط الغرفةِ
بالضبطِ. . .
فثمّتَ مكتبُه
والأوراقُ
وتلك الزاويةُ المُثلى حيث تلوّحُ نباتاتُ الصبّارِ
بأيدٍ مقطوعةْ. . .
ماذا يفعل كلَّ صباح؟
. . . .
. . . .
. . . .
أحياناً
يتذكر أن الرُّبع الخالي ليس بعيداً
أو أن الدايناصورات تقهقه أيضاً،
أو أن الشمس كسيفةْ
والبارات ستسدل منذ الصبح ستائرَها.
. . . .

. . . .

. . . .

أحياناً

يتذكر أن العالم متَّسعٌ حتى لقصيدة.

عمّان، ٢/٨/١٩٩٩

القرد والوالي

دخلَ القردُ على الوالي،
وقالْ:
«أعطِني ثوباً لكي أستر عوراتي به».
قال له الوالي:
«وهل يُخفي قميصٌ عورةَ القردِ؟»
فقال القردُ:
«يا مولاي. . . يا مولى الكِساءْ
أنتَ إن كنتَ ترى هذا
فخيرٌ ليَ أن ألبسَ ما تلبسُه أنتَ
صباحاً
ومساءً. . .».

عمّان، ٢/٨/١٩٩٩

محطّة

الذين يقولون:
سرنا طويلاً على الدربِ
لكننا لم نصلْ...
والذين يقولون: قلنا كثيراً
ولكننا لم نَقُلْ...
والذين يلوبون: مُتنا كثيراً
ولكننا لم نمت...
....
....
....
سوف أبني لهم منزلاً
في الطريق إلى «حُلْمِ آبادَ»...
أبني لهم منزلاً
لأنادمهم
وأغنّي لهم
وأقول: دَعُونا، ولو ليلةً، نستريح.

عمّان، ٢/٨/١٩٩٩

اللّعنة I

حوريّاتُ الجزر الإغريقيةِ
كنَّ بعيداتٍ. . . .
نحن سكارى في البحر الأحمرِ
ـ الخمرُ سرقناها من بيتٍ محترقٍ ـ
وغداً، لن يُبْلغنا المركبُ ميناءً،
سنظلُّ
هنا. . .
أسرى مركبِنا الملعون
أسرى
ملعونين
سكارى
تطردنا كلُّ عواهرِ هذا الشاطئِ
كلُّ مرافئهِ. . .
. . . .
. . . .
. . . .
لكنّا
سنظلُّ، برايتنا، مفتونين!

عمّان، ٢/٨/١٩٩٩

حيدر ينام

كالمستريحِ إلى النعاس دقيقتينِ
ينامُ حيدرُ. . .
حولَه الأزهارُ، والشمعُ الطويلُ
وضجَّةُ الناس الذين يغمغمون
ويلعبونَ، لأجلهِ، وَرَقاً. . . (هي الفِلبينُ)
حيدرُ مُغمضُ العينينِ
في شفتيهِ شيءٌ مثلُ شكوى، مثلُ لونٍ للملامةِ؛
كان حيدرُ ناعمَ الخدَّينِ
في أبهى أناقتهِ. . .
نظيفاً
لامعاً
مترقرقَ النُّعمى كعادتهِ،
وكان ينامُ. . .
. . . .
. . . .
. . . .
يا ولدي

قطعتُ الكونَ
أسبِقُ شمسَهُ لأراكَ . . .
يا ولدي،
تفارقُني كعهدك؟
خَلِّني ألمس يديكَ
وخلِّني أخبركَ عن وجَعي
وما صنعتْ بيَ الدُّنيا . . .
لمن أشكو إذا لم أشْكُ عندكَ؟
هكذا انقطعتْ بنا الدنيا. إذاً!
أرجوكَ . . .
يا ولدي،
تَنَفَّسْ بُرهةً!
افتحْ ولو لدقيقةٍ عينيكَ!
أبصر، لحظةً، شيبي
وماءَ دمي الذي يَنْهَلُّ من عينيَّ . . .
أبصِرْني
انتظِرْني . . .
كيف تسبقُني.
وتتركُني وحيداً في المفازةِ؟
. . . .
. . . .
. . . .

يا صغيري نَمْ
تحرَّرْ
طِرْ بعيداً
واسترِحْ من رحلةِ العبثِ الطويلةِ. . .
نَمْ
ودَعْني في الجحيم!

عمّان، ٣/٨/١٩٩٩

تنويعات على اللحظة

I

بـ «مقبرة الغرباءِ»
المساء
يجيء سريعاً. . .
وثَمَّ شُجيراتُ سروٍ
ستسمُقُ من بعد عشر سنينٍ
فلا تكتئبْ
يا بُنَيّ. . .

II

حين وسَّدتُكَ الصخرَ
كان جبينُكَ في وضعه الجانبيّ
هلالاً. . .

III

سوف أرقد مثلكَ:
مسترخياً

أنتَ علَّمتَني
أن أحبَّ التراب. . .

IV

ليس من مُخطئٍ
ليس من خاطئٍ
بشرٌ كُلُّنا
والنوايا. . . عذاب.

V

لن أهيل عليك التراب. . .

عمّان، ٣/٨/١٩٩٩

اللعنة II

أنا، في مُنتبَذي هذا،
منذ ثماني سنواتٍ:
ـ أَشرِطُ كلَّ نهاية عامٍ، بالمُديةِ خطّاً في رُسغي الأيسرِ ـ
جئتُ ولم أعرفْ أني جئت إليهِ
إلا بعد أن استروحْتُ بعيداً في طرف الشاطئِ
ألواحاً أعرفُها
وحبالاً
وصناديقَ بَخورٍ
وبراميلَ زيوتٍ؛ زيت الخِرْوعِ، زيت الكتّانِ
(إلى آخرهِ...)
أعني: أبصرتُ حُطامَ سفينةْ...
قلتْ: إذاً، هذا بيتي
وسأرفعُ سقفا
وأُقيمُ حوائطَ سعفا
وأنامُ، إلى أن تأتيني، في الحلم، سفينةْ
....
....

. . . .
مضت السنوات
وكاد السقف يقبِّلُ عشبَ الأرضِ
وطارت سعفاتُ الحائطِ
تتْبع طيرَ البحرِ
. . . .
. . . .
. . . .
ولكني ما زلتُ بمنتَبَذي هذا. . .
لم يعرفْ بي بشرٌ
لم تَمسَسني امرأةٌ،
لم تسعفْني، حتى في الحلمِ، سفينةْ.

عمّان، ١٥/٨/١٩٩٩

المطارَدة

بِيدٍ مغضّنةٍ
وسكّينٍ
أطاردُ قاتلي
حتى الحياةِ، كما يطارَدُ قاتلُ
. . . .
. . . .
. . . .
لن أستريحَ
ولو لكي أتمالكَ الأنفاسَ،
يأسي نافرٌ
ودمي هو الحُمّى
ويومي مائلٌ،
ويدي مغضّنةٌ
وسكيني تشدّ يدي،
ولكنْ. . .
كلّما أوشكتُ
واجَهَني العراقُ القاتلُ!

عمّان، ١٦/٨/١٩٩٩

إلى زُوّارٍ غربيّين

نسألكمُ، باللّه، لماذا تأتون إلينا؟
نحن رعاةٌ
صعاليكُ
وصيّادو سَمَكٍ قد لا يكفي للقوت اليوميّ
وَأَبَّارو نخلٍ أحياناً.

ومساكنُنا
صوفٌ
أو قصبٌ
أو طينٌ بسقوفٍ من سعفٍ أحياناً.
وملابسُنا
واحدةٌ
لا ألوانَ بها
لا تفصيلَ، ولا أشكالَ
ولا حتى حبكةَ. . .
بل نحن عراةٌ أحياناً.

وإذاً؟
باللّه، لماذا تأتون إلينا؟
أتحبّون النخلةَ حقاً، والصحراءَ؟
تحبّون البيت الصوفَ
ومَلْبسَنا
والطينَ المسقوف؟
لم يتبقَّ لدينا،
نحن المسلوخين إلى أن بانَ بياضُ العظم
ما نمنحكمْ،
نرجوكم . . .

عمّان، ١٩٩٩/٨/١٧

العلاقة

متمدداً
في غرفةٍ سُفلى
تماماً وسْطَ بستانٍ من الليمون والزيتونِ
والتينِ المضوَّعِ في الضحى عسلاً. . .
. . . .
. . . .
. . . .
ولكنْ
كنتُ أحجبُ مقلتي بيدي،
وأدْرأُ عن مسامعيَ الحفيفَ،
تُرى. . .
هل اعتدتُ المَشاهدَ
فانتهيتُ إلى سواها داخلَ استغراقتي وعمايَ؟
كيف، إذاً، سأفعلُ؟
كيف ألمسُ عالمي، وأراهُ؟
كيف سأهجسُ الصوتَ؟

المتاعبَ وهي حولي؟
الأصدقاءَ؟
وكيف أفعلُ بالمصافحةِ؟
. . . .
. . . .
. . . .
النسيمُ مضمَّخٌ بالياسمين

عمّان، ١٩/٨/١٩٩٩

قصائد العاصمة القديمة

(٢٠٠١)

● كُتبت هذه القصائد في العاصمةِ القديمة، لندن، بين ٢٦/١١/١٩٩٩ و١٢/٢/٢٠٠٠، وقد ارتأيتُ نشرَها، مُنَجَّمةً، كما وردتْ، وبلا عناوين، ذلك لأن منبعها حالة واحدة.

● القصائدُ السبعُ، من الخامسة عشرة حتى الحادية والعشرين، وكذلك المطالع الثلاثة الأولى للقصيدة الثلاثين تعتمد تدويرَ السريع وزناً.

س.ي

القصيدة الأولى

سأختضُّ
في هذه الغُرُفات التي في متاهات لندنَ أيضاً . . .
أهذي هي الغُرُفاتُ الأخيراتُ
أمْ هنّ مصطبةٌ عند باب المعسكرِ؟
أم أنها عرباتُ الرحيل؟
أفي بغتةٍ سوف تنزلقُ العجلاتُ
لتمضي بها نحو سهبٍ
بلا عشبةٍ؟
نحو عشبٍ بلا تربةٍ؟
نحو قبرٍ بلا زائرٍ أو زهور؟
تُرى، كيف نسكنُ في الغرفاتِ التي
لم نُبارك مصاريعَ أبوابها
بدمِ الديكِ؟
بالريشِ منتثراً
والأكفِّ الصبيغاتِ؟
كيف السلامُ على الجنِّ فيها،
على ساكني سدرةِ الحوشِ

والحيّةِ الجارةِ. . .
النحلِ والنملِ وهو يشيِّدُ مملكةَ اللَّه فيها؟
. . . .
. . . .
. . . .
سماءٌ لها زرقةُ البحرِ في عدنٍ. . .
كيف جاءتْ تقبّلُ عينيَّ هذا الصباح؟
. . . .
. . . .
. . . .
إذاً،
سوف أفتحُ مغلاقَ نافذتي
للشميم الذي قد يجيءُ. . .
سأفتحُ نافذةً
ثم نافذةً
ثم نافذةً. . .
كي أهدهدَ، في العمقِ، مسرى الرياح
وفي العمقِ، أعمقَ، مجرى الجحيم. . .

٢٦/ ١١/ ١٩٩٩

القصيدة الثانية

للمساكين في لندنَ، الليلُ. لترٌ من البيرة المكفهرةِ، أسودُ. والباصُ أحمرُ. والخدُّ يبتلُّ فوق الوسادةِ. لن يهطلَ المطرُ. . . الماءُ يسكنُ حتى الهواءَ. . . أَفِقْ! أنتَ لن تبصرَ القطراتِ الثخينةَ ترسمُ أشجارَها وألاعيبَها في زجاج النوافذِ، لن تسمعَ الماءَ صلصلةً أو نشيجاً. بلادُ المغنِّي الذي لا يغنِّي. سماءُ الغراب.

●

والبيوتُ الجنودُ، البيوتُ الطوابيرُ، حيثُ الحدائقُ في الخلف، والقطُّ، والكلبةُ، الورقُ المتشبعُ بالماءِ حتى يخيسَ. الموائدُ والخشبُ المحضُ، والأرضُ تنضحُ. . . في أي بيتٍ، وفي أي زاويةٍ منه، في أي مهوىً، سأتركُ أنفاسَ جَدِّي تغيض بلا رجعة، نفَساً، نفَساً؟

غنِّ لي يا زمانَ الصّبا، غنِّ لي يا غراب.

في المفازات، أو عند مستودعات الخمور، وبين الفواكه هنديةً، تقفُ الشمس. نحن، الملائكةَ الخاطئينَ ـ سنُطرَدُ نحو ظلام الظهيرةِ، ليس لدينا سوى حمل أكياسنا في مفازات لندنَ. فلتسمحي ليَ، أرجوكِ. . لا تتركيني وحيداً مع الكيس. ثمَّتَ ما

أستريحُ له غير هذي النهايةِ. قد يذهبُ الباصُ بي نحو بغدادَ، حيث الغراب.

•

للعراق، الرمالُ التي لا تغنِّي. العماديّةُ ارتفعتْ في الهواء عموديّةً. والجنودُ ينامون تحت صفيح السقيفةِ. كم خلعوا، كخواتمهم، كلَّ أصحابهم. كم تغيبُ السماءُ هنا مثل ما غابت الأرضُ عني هناك... المنازلُ قد تمَّحي.

الطفلُ يرسُمُ في الحلم كرّاسةً،
وأنا سوف أرسمُ طفلاً بكرّاستي.
أنا منذ الظهيرة أرسُمُ...
أين الطيورُ التي سوف تنقرُ عينيَّ؟
أين الغراب؟

١٩٩٩/١١/٢٩

القصيدة الثالثة

Red Lion Pub
حانة الأسد الأحمرِ
(الدربُ يَبلغها عبر مرجٍ ونهرٍ وغابةْ)
كنتُ صادفتُها أوّلاً، كالمحطّاتِ
تسكنُ لافتةَ الحافلةْ.
ثم جئتُ
(أخوضُ الندى والضحى)
كي أحيِّي، لديها، النهار
وأجلسَ منتصباً
عالياً
في مقدمة البارِ. . .
. . . .
. . . .
. . . .
لم تبزغ الساقية!
. . . .
. . . .

. . . .
قلتُ: هل سافرتْ في القطار المدرَّعِ؟
أم أنني جئتُ في يوم عطلتها؟
أم تراها تقبِّلُ عاشقها، خِلسةً؟
أم تراءى لها، أمسِ، وجه المسيح. . .
. . . .
. . . .
. . . .
انتظرتُ
ولم تبزغ الساقيةْ
لم يجئني أحدْ. . .
وأنا، لا أزالُ، هنا
منذ خمسين عاماً
أغمغمُ
منتصباً، عالياً، في مقدمة البارِ
أنتظرُ الساقيةْ!

١٩٩٩/١١/٣٠

القصيدة الرابعة

بعد حينٍ، أي قبل أن تعلن الساعاتُ خمساً، ستختفي شجراتُ البيتِ في عتمة المساءِ. سيحكي بعضُنا عن سمائهِ، عن شموسٍ في خيوط القميصِ.

لا . . . كيف تدنو الشمسُ من بيتنا؟ ابتعدنا، وغارَ البيتُ في حفرةٍ، كأنّ صياح الطَّيطوى يملأ المنافذَ: شيلوا! شيلوا! شيلوا!

فكيف تدنو السماءُ؟

لا أقولُ: الحياةُ أوسعُ من أن نتّقي حبَّها . . .
ولكننا في بغتةٍ نستفيق كي نعرف الضوءَ
شديداً، فنغمض العينَ، لا حُبّاً، ولا بغضةً.
غريبٌ! كأنَّ العينَ منذورةٌ لأن تتّقي
ما ليس في وُسعها. غريبٌ! أهذا ما يراهُ
الغريبُ في ساحة المترو؟
أهذا ما ترتئيه السماءُ؟
لن أراكِ العشيّةَ. . .

ابتعتُ خبزي واكتفائي وجبنتي ونبيذي، وأنا الآن جالسٌ لصقَ ذُلّي ووحشتي، جالسٌ في غفلتي. ذراعي التي أحببتِ مركونةٌ

كقطعةِ لوحٍ، واليدُ المبتغاةُ محضُ عظامٍ. . . أيُّ نجمٍ سيومضُ الليلة؟ ارتحنا من الأحاديث عن نجمٍ وعن خطوةٍ مجوسيّةٍ. . .

لكنْ، هل تستريح السماءُ؟

١/١٢/١٩٩٩

القصيدة الخامسة

زُمراً ثقالاً، أو فُرادى، مثلَ ما يمضي العراقيون، يمضي في متاهة لندنَ الصُّغرى العراقيون؛ لم يتصدَّقوا حتى بومضةِ دمعةٍ أو شمعةٍ. . . لم يَصْدِقوا نبَضاتِهم قولاً، كأنهمو جواميسُ القيامةِ؛

هل أقولُ لهم: كذبتُمْ؟

لم تعودوا، مثل ما كنتمُ عماليقَ القُرى؛ يا إخوتي: أنتم هنا الغرباء، والبؤساءُ، أيتامٌ بمأدُبةٍ مُسَخّمةٍ، وكيسُ قُمامةٍ في أسفل البرميلِ. لا! لا تيأسوا! فلقد يمرُّ بكم، ولِلَحظةٍ، تجّارُ خيبرَ، ثم تدخلُ عصبةُ النخّاسِ، ترفعُ في مقرِّ السوقِ مصطبةً، ويرتفع النداءُ من المنادي: كَمْ؟ ويأتي المشترونَ، وأنتمو تتمهَّلون، سذاجةً، في السوقِ، تنتظرونَ معجزةً، ولستمْ تنظرونَ، كأنكم، حقاً، جواميسُ القيامةِ في مَناقِعِكم، وأكياسُ القُمامةِ. . .

هل سيخرج بينكم طفلٌ عليكم؟
هل سيرفعُ صوتَه، حُرّاً، كصوتِ الطفلِ
يخبركم بما لن تسمعوا؟

. . . .

. . . .

. . . .

يا إخوتي. . .
لسنا هنا في جنّة المأوى
ولا في حانةِ البحرِ القديمةِ
. . . .
ربما كنا مع الماضين في كفّ السرابِ،
وربما كنا مع الغرقى الذين تخلَّعتْ، مِزَقاً، سفينتُهم. . .
يطفون كالأحياءِ
كالثمِلين بالماءِ. . .
السفينةُ لم تَعُدْ حتى خطوطَ سفينةٍ
لكنهم يطْفون منتفخي الوجوه على مرايانا،
ثقالاً في الصباحِ، ومثقلينَ بما يُخَدِّرُ في المساءِ. . .
لمن، إذاً، نمضي؟
وماذا نرتجي في لندنَ الصغرى، وفي قنوات هولندا، وفي ثلج السويد، وذلِّ كوبنهاجن؟
النرويج، أو غاباتِ فنلندا؟ وماذا سوف نبني
في ندى سيدني، ومنزلقات مونتانا، وعبر
شمالنا الكنديّ، والمنفى الذي يستغرق المنفى؟
تُرى، هل سان دييغو، ساكرامنتو، إصفهانٌ، أو حديث الليل في دِيْترويتَ ما جئنا له في هذه الدُّنيا؟ وهل صدّامٌ الخنزيرُ صخرتُنا التي سنظل ننطحُها بأوردة الجباهِ، ووردةِ الباراتِ، ننطحُها لننسى بعد حينٍ أننا صرنا لها الأتباعَ. . .
إخوتيَ العراقيين!

إخوتي الأُلى وطأوا بأحذيةٍ من الإذلالِ والتَّسآلِ
أغنيةَ العراقيين، شامَتَها، وتِبْرَ جبينها الوضّاءِ:
ما طعمُ الحياة، إذا نسينا أننا بشرٌ لنا وطنٌ
وزاويةٌ وأسماءٌ؟ وما معنى الحياة إذا غدتْ
دكّانَ محتالينَ. . .
يا أبناءَ إخوتيَ العراقيينَ؟
. . . .
. . . .
. . . .
فلنذرفْ، ولو شمعاً، ولو دمعاً من التمساحِ. . .
ولنحفرْ عميقاً في ملابسنا
وفي راحاتنا
فلعلّنا نلقى، مع النُّكران، أنفسَنا
ونعرفُ ما نريد. . .

٢/١٢/١٩٩٩ ـ ٢٢/١/٢٠٠٠

القصيدة السادسة

خيّالةُ الفجر

دربُنا الدربُ الذي لا ينتهي
يا ظهورَ الخيل، يا بيت البهيّ
يا قميص الفجر، دعني أزدهي
فلقد أكشفُ يوماً وجهَها...
ها، ها، ها!

ربما كان لها البيتُ الذي ينهضُ أقصى السفح، مخضرّاً غريباً في ضباب الفجر، أو كان لها البيتُ الذي يخفيه في الوادي انعطافُ النهر، حيث السَّروُ مكتظٌّ. ومَن يدري لعلَّ الأهلَ راحوا مَعَ من راحوا... لماذا، وحديَ الباقي على العهد؟ على الصورة حتى لو نأتْ ألوانُها، وامَّحتِ الذكرى؟ لماذا تنتهي الرحلةُ دوماً عند أبواب البيوت؟

●

مَن تناديني لتحيي القصبا؟
وتغنِّيني حجازاً وصَبا؟

أيها الفرسانُ: أبصرتُ الصِّبا!
إنه يصبغُ ورداً وجهَها. . .
ها، ها، ها!

هكذا كنتُ، إذاً؟ أضألُ نبتٍ يتراءى غابةً لي. . . أيُّ غصنٍ يستوي كوناً وراء الكونِ. . . أيُّ امرأةٍ تغدو هي المعبودةَ الأولى. . . عجيبٌ أن أرى في لحظة الحبِّ الصباحيِّ، انهمارَ الثلج! ماضٍ أنا في الدرب الذي ليس له معنىً سوى الدرب. . . أهذا ما رآهُ فدارسٌ قبلي، وقد أغمض عينيه على الحلم الشتيت؟

نحن إن جئنا نفضْنا الثلجَ عنّا
وانتظرنا فتحةَ الباب قليلاً ودخلنا
يا بناتِ البيت، يا دفءَ المُعَنَّى
من رأت منكنّ يوماً وجهها؟
ها، ها، ها!

كيف لم تسمعْ بنا القريةُ؟ منذ اللحظة الأولى لقتلِ السبعةِ الفرسان في غابة أيّوبَ، تعالتْ صيحةُ الطيرِ وفَزَّ الهدهدُ. . . احتدَّ نداءُ الطَّيطوى. . .

أنتَ تقول: الناسُ لم تعرف بما كان هنا من أمرِنا. . .
يا خيبةَ المسعى!
ويا وحشةَ هذا الفارس الناجي من السيف!
إلى أين سيمضي؟

. . . .

. . . .

. . . .

ربما فكَّرَ إذ مَرَّ على الحانة، ليلاً، أن يموت. .

١٤/١٢/١٩٩٩

القصيدة السابعة

بدرٌ على تلك العمارات التي لم تبْنِهنَّ رئيسة الوزراءِ
لندنُ، في البعيدِ
الطائراتُ تحوم كلَّ دقيقةٍ
لتحطَّ في ليلٍ بلا ليلٍ
وتُقلع في النهار بلا نهارٍ،
وحده، مصباحُ شارعنا يُلائمُ طبعَهُ
متلفلفاً
ليقول إن الليل ليلٌ
والنهار هنا نهار. . .
. . . .
. . . .
. . . .
أمسِ
حاوَلَتِ ابنتي أن تسلكَ الطرقَ
التي قد وطّأتْها قبلها الفتياتُ. . .
خابتْ في المحاولة ابنتي

وخَبَتْ
وخفتُ، أنا البعيدُ،
لأنّ هذا الليل، أشبهُ بالسفينةِ
آنَ يجرفُها
وقد تقطَّعت الحبالُ، المدّ. . .
عفوَكِ
يا ابنتي
لا تصمتي. . .
قولي، ولو خطأً، رجاءً!
قبل أن يأتي على أمراسِ بيتي المَدّ. . .

١٥/١٢/١٩٩٩

القصيدة الثامنة

إبَرٌ جليدٌ تحت أطرافي
كأنّ يدي معلّقةٌ بحبلٍ في الهواءِ؛
يدي تراوغني. . .
ـ يمرُّ سربٌ من نوارسَ ـ
أيها المتعلِّقُ البحريُّ:
لو كانت سماؤك غيرَ هذي
لاغتذتْ من شمسها عيناي
وانتفضتْ مع النُّعمى يدايَ. . .
كأنني أنا؛
. . . .
. . . .
. . . .
لا سبيلَ
فهل سيُمسي السلسبيلُ
المنبعَ الليليَّ (أعني المَشْرَبَ السُّفليَّ) أيضاً؟
هل سأتركُ قمّتي

لأخوضَ في ما يُشبه الوادي؟
وهل أمحو، بلا أسفٍ، علاماتي، ونجمي
كي يلوحَ لي الدليلُ
بلا دليلٍ؟
أم تُراني باحثاً عن جِذْعةٍ ومَدىً
وعن بحرٍ وموجٍ مُستحيلٍ...

١٩٩٩/١٢/٢٦

القصيدة التاسعة

مطرُ الصباحِ
معلَّقٌ بشجيرة التفّاح إذْ عَرِيَتْ
تويجاتٍ من الماسِ
اللآلئِ
أو من الورقِ الزجاجِ . . .
شجيرةُ التفّاحِ
تلبسُ عُريَها، شفّافةً
شفةً مفتّحةً
ودفئاً مُستسرّاً في الشتاء .

١٩٩٩/١٢/٣٠

القصيدة العاشرة

البيتُ ذو المدخنة الوحيدة التي يَطْلُع منها
كلَّما راقبتُها، الدخانُ
البيتُ ذو المدخنة الوحيدةِ
اكتفى بشبّاكٍ أرى منه ضياءَ العيد أحياناً
وأحياناً أرى منه ظلالاً
وثيابَ امرأةٍ منشورةً في آخرِ الغرفةِ
أو مائدةً بلا صحونٍ. . .
(يمرق النورسُ):
في العمق
أرى سفينةَ الغرقى.

١٩٩٩/١٢/٣٠

القصيدة الحادية عشرة

لم آتِ مدينتكم (لندنَ) كي أعرفَها
وأقيمَ بها. . .
أنا جئتُ أخضُّ مياهاً راكدةً
وأراقبُ مركبةَ الموتى
تحمل أشلاءً، كي تُسْكنَها أرضاً باردةً. . .
. . . .
. . . .
. . . .
لم آتِ مدينتكم، كي أعرفَها
فأنا أعرفُها
ولقد كنتُ أقمتُ بها، منذ صباي
ولي فيها الرِّفقةُ:
أُودِنُ،
والاسكتلنديُّ الراقصُ: روبرت بيرنز
والإيرلنديُّ الأولُ: جون بتلر ييتس
ولي فيها ليلُ جراهام غرين

ومجلاتُ العمال

وتاريخُ حُفاةٍ وشيوعيين

. . . .

. . . .

. . . .

لكني سأظلُّ هنا

لأخضَّ مياهاً راكدةً

وأراقب مركبةَ الموتى

وأخوضَ حروباً أكرهُها. . .

٣٠/ ١٢/ ١٩٩٩

القصيدة الثانية عشرة

يا بهجةَ الصبح المبكِّرِ، يا . . . ويا طيفاً من الغابات مُسْتَرِقاً
تمهَّلْ عند بابي!
يا جسمَ موسيقى
ويا حركاتِ أغنيةٍ متمتمةٍ . . .
لكَ الغدواتُ والرَّوحاتُ
والأطرافُ عاليةً
وسابغةُ الفراء الأصهب، اللفتاتُ
والذّيلُ الذي ضفرتْهُ أنملةُ الأميرةِ . . .
سيدي!
يا ثعلبي، يا ثعلب الغاباتِ
أبشِرْ!
أنت، لستَ، هنا، الوحيدَ . . .
(كأنكَ استفْتَ الأمانَ معي!)
دعوتُكَ
فاستجبتَ بلفتةِ الطاووسِ
ثم مضيتَ، أصهبَ
لامعاً

متبخترَ الخطواتِ. . .

. . . .

. . . .

. . . .

شكراً، يا أمير الصبحِ
شكراً للبشارةِ
والبشير. . .

١٩٩٩/١٢/٣١

القصيدة الثالثة عشرة

«إلى ياسمين»

في أكْسِتَرْ،
حيث تلوذينَ من الكونِ
بسروالِ سوادٍ،
ومن الأسْوَدِ
بالبرق الذي يسكن عينيكِ،
ومن عينيكِ
بالشَّعر الذي ينهدُّ في الهدأةِ موجاً. . .
. . . .
. . . .
. . . .
ربما فكّرتُ أن أمضي بعيداً في مدى عينيكِ،
أو في دورة السروال إذ يُحْكم ردفيكِ
وقد أعدو إلى الحافةِ
كي يغمرني شَعرُكِ بالموجةِ. . .
. . . .

. . . .

. . . .

ما أسعدني في هذه البلدةِ!
ما أعمقَها من وحشةٍ في هذه البلدةِ!
ما أبعدني عنكِ. . .
وإن كانت مراياكِ ممرّاتِ الحديقةْ!

Exeter ٢٠٠٠ /١ /٧
بيت زليخة أبو ريشة

القصيدة الرابعة عشرة

لو أنّ هذا الشجرَ الواقفَ آلافاً
وآلافاً
على امتداد السككِ الحديدِ
أو مَسالكِ البريدِ
استيقظَ، الغبشة، من سُباتِهِ. . .
لو أمرَ العروقَ أن تنتأَ،
والجذورَ أن ترفعَ من قاماتها،
والنُّسغَ أن يمضي بعيداً، وعميقاً،
هكذا. . .
والورقَ الذابلَ أن يخضَرَّ
والمُسَّاقِطَ اليابسَ أن يَحْمرَّ في أغصانهِ
لو أنّ هذا الشجرَ استنكرَ أن يمتثلَ اليوم، فقط، للدورةِ الحَتْمِ،
ولو سارت صفوفُ الدَّوحِ
وانشقّتْ على ما تقتضي غاباتُها. . .
كيف سيغدو العالَمُ؟
الناسُ؟

وألوانُ السماءِ/ الأرضِ؟
هل يأتي المغنّون لكي تنطلقَ البوقاتُ؟
هل يَحكم قردٌ مثل ما كان رعاياهُ؟
وهل تنفتحُ الأبوابُ، كي يخرج منها الذاهلونَ؟
. . . .
. . . .
. . . .
امتثلَ العقلُ، أخيراً، للجنون.

١٠/ ١/ ٢٠٠٠
Exeter - London

القصيدة الخامسة عشرة

لم تَعُدِ النساءُ يمنحننا ممّا لديهنّ القليلَ
الكثيرَ. البردُ في الأطرافِ، والجمرةُ الجمرةُ
مرَّتْ كقطارٍ أخيرٍ. هذه الأزهارُ ما شأنُها؟
أهْيَ لِوَعْدٍ؟ أم لأنَّ الضميرَ استوقفَ
اللحظةَ في لحظةٍ كاد جناحٌ عندها أن يطيرَ؟
الماءُ في الأشياءِ، لكننا نحسُّ طعمَ الرملِ
في قُبلة الليلِ، فهل يمضي نهوضُ الفجرِ بي
نحوها؟ هل أهصرُ الخصرَ، كما كنتُ؟
هل أسألُها الغفوةَ؟ هل أدخلُ فيها؟
البرجُ في البُعدِ
وفي أعلى الصنوبراتِ الشمسُ
يومٌ آخَرُ...
النوارسُ استوطنتِ المرجَ
وفي خيط قميصي ضَوْعةٌ من شَعْرها،
لمسةٌ نَهْدَيها
وشيٌ من بَخور...

١٨/ ١/ ٢٠٠٠

القصيدة السادسة عشرة

أيُّ مساءٍ ينتهي عندما لا ننتهي؟
أيّ سماءٍ هنا لم تنتفضْ آنَ انتفضْنا،
وإن مُتنا، فهل كان علينا معاً أن
نغسلَ الأدرانَ، أن نمنعَ العدوى
التي تسكن بين الضلع والضلع.؟.
الأساطيرُ احتمتْ بالورقِ، الناسُ
احتمتْ بالراية الخضراء، بالصمتِ الوليّ،
الراحةِ العظمى، أبو تمّامٍ، المرأةُ
في مخدعها مهجورةٌ، منتوفةُ العانةِ،
ماذا ترتجي؟ لا بأسَ أن ندخل في
العالمِ، عُريانينَ، أسمالاً، سكارى...
يا فتىً لم يلتفتْ
يا لفتةً لم تأتِ
يا طفلاً سماويّاً...
هنا، في الهدأة، اشتقْنا إلى الموجةِ
واشتقنا إلى الموتِ،
انتظرنا أن نرى وجهكَ...
لكنك لم تمنح براري روحنا إلا الذّهول.

٢٠٠٠/١/١٨

القصيدة السابعة عشرة

لو دامَ والشامَ هوىً! لو رأتْ
عيونُنا ما لا تراه العيونُ. . . انتبهَ الوردُ
ولم ننتبِهْ والسُّرَّةُ ـ الحلمةُ، واليانسونُ
الفمُ، والماءُ الذي في الغصونِ. . .
انتظريني، لستُ أدري لماذا جئتُ
أجري حاملاً زهرةً، مرتبكاً في شبكاتٍ
الشؤونِ. . .
الساحةُ اكتظَّتْ
وهَبَّ الحَمامُ
الكلبُ والقيثارُ. . . والرقصةُ
الغادونَ
والرائحونْ. . . .
. . . .
. . . .
. . . .
وههنا
وحدي، أنا الأعمى
أسمعُ ما ضجَّ به الصامتون. . .

١٩/١/٢٠٠٠

القصيدة الثامنة عشرة

من جاءني في مطرٍ لا أراهُ؟ اللعنةُ
المُثلى، ولونُ الشفاه المستفزّات على
حافةٍ تنقرها في الهدأة الطائراتُ،
انتهت الحربُ ولم نبتدئْ، كأننا نسكنُ
بيتاً به الكانونُ والكُنُّ ومستلزَمُ
العيشِ رخيّاً ورضيّاً. . . فهل تسألُنا
البومةُ عنّا، وهل نسألها عمّا ترى
فجأةً، في مَوْهِنِ الليلِ. . .
أليس الظلامُ النورَ؟
هل هذا السّرابُ الذي نلمحه، الحقُّ؟
وهل هذه القطرةُ كأسُ المنتهى؟
هل لنا ألوانُنا
أم أننا الكامدون؟
. . . .
. . . .
. . . .
ليتَ الليالي أورثتْنا الجنون. . .

٢٠/ ١/ ٢٠٠٠

القصيدة التاسعة عشرة

أعيا، فلا ألقاكِ، بين المحطّاتِ
وبين البارِ والآخر... اشتقتُ لكي نهدأَ
حيناً، وأن نعقدَ أيدينا، وأن نغمضَ
العيونَ، ساعاتٍ، بِوادي السريرِ...
استقبِلي، يا بنتُ، أشجانَنا، باسمةً
ظمأى، ونَهداً يطيرُ، الليلةَ الليلةَ
لم تمطر السماءُ، لكنّ الملاءات ندىً
من حريرٍ أو شذىً أو عَرَقٍ، سُرّةٍ
أو إِبطٍ...
في أي أرضٍ يسيلُ البحرُ؟
في أي بحارٍ ستطفو أرضُنا...
يا جمرةَ الزمهرير؟

٢١/ ١/ ٢٠٠٠

القصيدة العشرون

غيّبني هذا المساءُ الذي يبدأ في الرابعةِ
الرطبةِ. اخترتُ نبيذاً ورغيفاً وجبناً. . .
هذه مرساتُنا، يومُنا، والأملُ الباقي.
مضى السائرونَ.
الناسُ في الرابعةِ الرطْبة. الناسُ سكارى،
الناسُ موتى؛ فهل وحدي أنا الباقي؟
لماذا؟ وهذا النهر لم ينشفْ. إذاً، فلأْمضِ،
ولْأَمضِ إلى القرارة السفلى.

٢١/ ١/ ٢٠٠٠

القصيدة الحادية والعشرون

أدورُ في حبسي طليقاً
ولا أختلسُ النظرةَ من سُورهِ العالي
لأني في المساءِ الخفيضِ
اجتزتُ بوّابةَ روحي،
لأني اعتدتُ أن أرسُمَ سجناً
وأن أُطْلِقَ طيراً فيهِ. . .
. . . .
. . . .
. . . .
ليس الجناحُ
الهَمَّ.
إن الهمَّ ما يرتقيه. . .

٢١/ ١/ ٢٠٠٠

القصيدة الثانية والعشرون

حالكاً، يقترب الغيمُ
بطيئاً
قاسياً
قادراً في الفجر أن يطفئَ حتى الشمسَ
أن يطفئَني في لحظةٍ. . .
أريدُ أن أرفع رأسي، خوفَ أن يغرقَني.
ثمَّتَ قرميدٌ يذود عن حُمرتهِ؛
صنوبراتٌ تحرس اخضرارَها. . .
. . . .
. . . .
. . . .
مدخنةُ البيتِ الذي أرقبهُ كلَّ صباحٍ
من زجاج غرفتي
ترسلُ، في الصمتِ
دخانَها. . . أبيضْ.

٢٨/ ١/ ٢٠٠٠

القصيدة الثالثة والعشرون

عندما تجلس «أشجانُ» إلى شُرفتها
(أعني إلى البيرةِ)
لا تعرف، حقاً، ما تريد. . .
ربما عَنَّ لها أن تفتح الوردةَ
أو تمتصَّ غصناً يانعاً،
أو تشتهي. . .
لكنها (أسرعَ من بيرتها) تُسرعُ
كي توصدَ باباً من حديد. . .
. . . .
. . . .
. . . .
هكذا لُعبتُها:
لا تترك الكأسَ،
ولا تتركني أنالُ منها ما تُريد. . .

٢٠٠٠/١/٢٩

القصيدة الرابعة والعشرون

وليكنْ!
لن يغمرَ، الليلةَ، ثلجٌ، هذه الأشجارَ
لن يَبْيضَّ سورٌ
وسيبقى السقفُ في لون النبيذِ،
الريحُ ترتاحُ على الأرصفةِ المبتلّةِ
النافذةُ الزجاجُ غامتْ بالرذاذِ. . .
الليلُ يهوي في أقاصي الليلِ،
والصرخةُ تلتمُّ عميقاً
وتئنُّ. . .

٢٠٠٠/١/٢٩

القصيدة الخامسة والعشرون

ليس هذا قصباً يهتزُّ تحت الريحِ
ليس العُشُبُ الميّالُ بُرديّاً
وليست سروةُ المنتزَهِ النخلةَ. . .
ـ طبعاً!
وإذاً، ما طَعْمُ ما تكتبُه الآنَ
عن القَصْباءِ
والنخلةِ
والبرديّ؟
هل تخدعني بالعودة المُثلى إلى النبعِ؟
وهل تُقنعني أنك تشكو من حنينٍ؟
أهيَ اللعنةُ؟
أم رِجفةُ هذا الصبحِ. . .
والبردُ
وما تكنزهُ من قسوةٍ هذه الحياة؟

٣٠/ ١/ ٢٠٠٠

القصيدة السادسة والعشرون

من سطحِ القرميدِ المخضرِّ
الفاقدِ حمرتَهُ،
وتماماً عند يمين النافذة الأقصى...
تتهدَّدُ في الريح أعالي شجرةْ
تتمدَّدُ
أو تتبدَّدُ...
أغصاناً عاريةً
أغصاناً أربعةً
أغصاناً لا أعرفُ كيف أُسمِّيها
أغصاناً لا تحملها شجرةْ
أغصاناً تتقصَّفُ في الريحِ
....
....
....
تُرى،
في أي تُرابٍ سوف تُمرِّغُها هذه الريح؟

٢٠٠٠/١/٣٠

القصيدة السابعة والعشرون

لو كان لي أن أُمسيَ الغيمةَ
لاشتقتُ إلى كأسٍ من الماءِ. . .
ولو أني غدوتُ الجبلَ الشاهقَ
لاشتقتُ إلى سهلٍ. . .
ولو أوغلتُ في الرملِ
رأيتُ النجمَ مرآتي. . .
ذراعي كجناح الطيرِ
لكني، بها أبلغُ ما لا يبلغُ المحراثُ:
أن أصنعَ من مائدة الأحجارِ
معنىً لي
ومعنىً لِدَهاليز الحياة. . .

٦/ ٢/ ٢٠٠٠

القصيدة الثامنة والعشرون

عبر زجاج النافذةِ، الغائمِ بالمطرِ
المترقِّطِ بالقطراتِ
تلوحُ صنوبرةٌ في البُعدِ،
القطراتُ من النافذةِ التصقتْ بالأغصانِ
القطراتُ تخطِّطُ في البُعدِ صنوبرةً،
وتضيءُ. . .
. . . .
. . . .
. . . .
كأني أهجسُ، في الغرفةِ، أجراسَ الميلادِ
تروح، على مهلٍ، وتجيء. . .

٧/ ٢/ ٢٠٠٠

القصيدة التاسعة والعشرون

ياما. . . لماءِ الوردِ
ياما للشَّآمِ
وما لأهلِ الشامِ
ياما. . . للغصونِ
وللعيونِ
ياما. . .
كأنَّ الماءَ من قصبٍ يسيلُ
كأنَّ ناياً سال تحت الماءِ؛
هل ليلى
وهل خُصُلاتُ هالةَ
وارتعاشةُ غادةَ الهدباءِ
بيتي، والقصيدةُ. . .
أم تُراني أرتجي شفقاً وقد غامَ السبيلُ؟
ياما. . . لماءِ الوردِ
ياما للشّآمِ
وليتَ زُنّاراً تداعبهُ أناملُ غادةَ الهَدْباءِ
يعرفُ ما تقولُ. . .

٧/ ٢/ ٢٠٠٠

القصيدة الثلاثون

ـ ١ ـ

ليس لديّ الآن، مما عرفْنا أمسِ، إلا
هذه الأغنياتُ المستريحاتُ إلى حافةِ الحلْمِ،
إذاً. . . ماذا ترانا نقولُ؟ اليوم حلُم الأمسِ،
والأمس لم ينطقْ به إلا شعاعٌ وحيدٌ.
دارةُ العشّاقِ قد أُغلقتْ. وتاه في القفرِ
المريدونَ. إن اللحظةَ الشهقةَ ماءٌ بعيد.

●

ما من يوم سابعٍ/ السماءُ لا تستريح من ثوبها/
ربما كانت مذكَّرةً في لغات هذه الأقاليمِ/ الرصاصُ
يترسَّبُ في نسيج الدماغ/ والطائرةُ المدنيةُ التي
تقطعُ عُرضَ النافذة الآن/ تصل إليّ عبر الزجاج
المزدوج/ مثل هدير الطيران الحربيّ/
إسرائيلُ تمطرُ أحياءَ بيروتَ الفقيرةَ بالمنِّ
والسَّلوى/ قد تبزغ الشمسُ فجأةً هنا/ مثل ما
كان القصفُ يتقطَّعُ هناك/ لنا ملجأُ الصنائعِ أو

رأس بيروت/ وفي هذا الصباح الذي تثقلُه
أنفاسُنا/ لا ملجأَ من الملجأ/ نحن في العاصمة القديمة.

ـ ٢ ـ

ما أعجبَ الدنيا، وما أعجبَ المفتونَ بالدنيا!
أليستْ حياةُ الناسِ دربَ الموتِ؟ هل تُولَدُ
الوردةُ في البذرةِ، أم أنّ ما يولَدُ لا هذا
ولا ذاك.؟. إن البذرةَ ـ الوردةَ ما قد تراهُ
العينُ. أين ارتحلَ المبصرونَ؟ المطرُ الصامتُ
لم ينقطع... والشجرُ الماثلُ عاري الغصون.

●

الأباضيون/ أودعوا تخومَ الربع الخالي أوراقَهم/ هناك
محنة الكتاب الأخيرة/ وِقفتُه الشجاعةُ الماكرة/ المغيرون
ذوو الحواجب المنعقدة ينتظرون لحظَتهم/ السالميُّ الذي
احتمى ظَهرُهُ المستدقُّ بكثبان التخوم/ يقرأ مخطوطتَهُ
مطمئناً/ كما يقرأ النجوم/ في الصحراء الإفريقية العظمى
أقمنا قرانا السبع المقدسة مستضيئةً بالمخطوط/
كان الأتراك وراءنا/ وغُلاة المذاهب/ وكنا نحرس
بالرمل ذُبالةَ السُّلالة/ لكننا هنا/ في التخوم الخطرة/
مدادُ المخطوطة تَبْيَضُّ عيونُه من السُّهد.

ـ ٣ ـ

لو مَرَّ سربٌ من يمامٍ على الشرفةِ،
في هذا الضحى... هل تراني سأنادي مثل
ما كنتُ ناديتُ زماناً؟ يا زمانَ الصِّبا،
يا أيها الواهبُ صوتاً للدمِ النافرِ، معنىً
للكلامِ الخبيءِ... اللحظةُ التفَّتْ على بعضها
وانتبه البُرديُّ واللوتسُ. اليمامُ ما مَرَّ،
وهذا الضحى يشحبُ، والكونُ صغيرٌ صغير.

●

في بحر العرب/ أضعنا أوراقَنا/ لا ميلادَ لنا
ولا موت/ نحن قادمون من قارةٍ ضائعة/ ذاهبون
إلى قارة ضائعة/ وفي ليل البحر الأحمر حيثُ
تعتمُ المرافئُ/ تحملنا سفينةُ قراصنةٍ رايتُها المطرقةُ
والمنجلُ/ ثوريّون أفارقة يعودون إلى غاباتهم/
بزوارقَ مطّاطٍ مموّهة/ والعربُ يعضّون على المُدى
بأسنانهم/ ويلاحقونهم على سواحل شرقيّ إفريقيا/
لقد نجونا/ سفينةُ القراصنة تقتحم ثلاثة بحار/
مسلّحةً بكلبٍ ذئبيٍّ وحيد.

ـ ٤ ـ

تنتقل الغيومْ
وئيدةً

في شفقٍ ليس به حُمرةُ أيدينا
ولا حنّاءُ شَعرِنا. . .
تنتقلُ الغيومْ
خفيفةً
عند الضحى العالي
ولا تكشف عن شمسٍ
ولو كانت سراباً معدِناً. . .
تنتقل الغيوم
ثقيلةً
في الغسق الأولِ
. . . .
. . . .
. . . .
ما حكمةُ هذا الكونِ؟
ما حكمةُ أن نذوي هنا؟

١٢/ ٢/ ٢٠٠٠

مُلْحَق

ما بعد الارتطام

غِياب

تُفسح لي
ما بين نهديها، مكاناً
لستُ أدري ما الذي تفعله حواسِّيَ الخمسُ بهِ. . .
تقول لي ضاحكةً:
«يكفيكَ أن تشرب من حليب لوزي قطرةً»،
أيتها المرأةُ
يا مِرآة شخصينِ بلا مَرْأى:
أنا المغيَّبَ، اللحظةَ، في نهديكِ
عن كل حواسّي. . .
لن أفيقْ!
هكذا، أيتها المرأةُ
يكفيني من الوردِ الرّحيقْ. . .

لندن، ١٢/ ٤/ ٢٠٠٠

الغراب

يحجلُ
في الفجر، إلى مقصورة الهاتفِ
عبْرَ الشارع الخالي. . .
الغرابُ الشيخُ
يأتي
أسحمَ المنقارِ
والريشِ
رزيناً
يقطع الشارعَ من أي مكانٍ شاءَ
ـ إلا معبرَ المارّةِ ـ
والآن. . .
خفيفاً يعتلي السورَ
كما في خفّة العصفور
أو صقرِ الأعالي. . .
يعتلي السورَ الحديديَّ إلى مقصورة الهاتفِ
كي ينقر شيئاً غائباً في الريحِ

كي يحجل حيناً قبل أن يمضي مع الريحِ
ثقيلَ العبءِ ممّا استافَه في الريحِ
. . . .
. . . .
. . . .
قد يأتي إلى مقصورة الهاتفِ
سربٌ من حمامٍ
بعد حين. . .

لندن، ١٩/ ٥/ ٢٠٠٠

المقبرة البولونيَّة

إلى محمد شكري

ـ ١ ـ

نحن، في لندنَ.
المقابرُ فيها مثل أبهى البيوتِ،
والبيتُ مثل القبرِ.
فلنتَّفقْ على أننا لم نبنِ ههنا، مثلَ ما كنّا بنيناهُ
في دمشقَ؛
المقابرَ.
الغرباءُ استسلموا للعراءِ، يا زينبُ الحوراء
لا تشمتي بنا:
الناسُ هَبّوا
والسكارى في ليلة الأحدِ
العاشقُ يستقبل العشيقَ،
هنا حاناتُهم. . .
فأين قبورُ الأهلِ؟
أين الذين ظلوا ينامون طويلاً تحت التراب المخْضَلِّ؟

تحت النجمِ؟
أين السفينةُ؟
السِّدْرُ والمَغْسَلُ، الطّوافُ
وتلك الأعينُ الدامعاتُ من مَغْرز الرملِ؟
النهاياتُ لم تكنْ. هي لم تبدأْ
وهذا المساءَ ندخلُ في البارِ
كأسناننا، سواسيةً
نسْلبُ ركْبَ الغضا
ونسبي العذارى. . .
نحن، في لندنَ، التي تشتهي أجداثَنا، حين نحسبُ الدارَ دارا.

ـ ٢ ـ

لم تكن في البعيدِ
كانت تماماً تحت شبّاك غرفتي
شجراً غائماً، سأسألُ عن أسمائه مرَّةً. . . .
ولكنْ، لماذا؟
أكتفي منه بالصنوبرِ والسَّروِ
وصفصافةٍ مهدَّلةٍ تبكي. . .
السناجيبُ ترتخي
وطيورُ الليل، والزائرون
والعشبُ والصلعوكُ. . .
في سلّة القُمامةِ كانت عُلَبُ البيرةِ،

الشطائرُ مقضومةً إلى النصف. . .
كان الجندُ مصفوفينَ في موتهم بلا شجرٍ،
والضابطُ المهندسُ
والطيّار
والمدفعيُّ
ينعمون عميقاً
تحت أشجارِهم ومرمرِهم. . .
. . . .
. . . .
. . . .
أيَّانَ، تحنو، تحنُّ، وارشو البعيدةْ. . .

ـ ٣ ـ

سوف تأتيكَ نخلةٌ
سَتَراها
حينما تدلهمُّ دنياكَ في الليل الأخيرِ
الجذعُ يدنو
حتى يلاصقَ شُبّاكَ الغُرَيفةِ،
السعفةُ الطُّولى ستمتدُّ
بغتةً. . .
سَتَراها
تتخطَّى الزجاجَ

واللوحَ
والقرميدَ
كي تصبحَ الوسادةَ
والبسمةَ،
والرِّيشَ
في جناحِ الأميرِ
الأميرِ الذي يطيرُ بعيداً
رافلاً في سحابةٍ من حريرِ. . .

لندن، ٢٣/ ٥/ ٢٠٠٠

الوقفة

حظُّنا، أيتها النخلةُ
أن نهتزَّ إن مرَّتْ بنا عاصفةٌ:
نقوى مع الريحِ:
ولا نهوي... لنهوي.
حظُّنا أن نَنشدَ الماءَ
وأن يُحرقنا الضوءُ...
وحظٌّ أننا نعطي، ولا نعطَى
وحظٌّ أننا نلبس ما ننسجه حسبُ،
وحظٌّ أن ما يجمعنا والنجمَ حُبٌّ...
....
....
....
أتراها: نعمةً أم نقمةً؟
لا بأسَ
إنّا، لم نزل، أيتها النخلةُ
أبهى الواقفين...

لندن، ١٩/ ٥/ ٢٠٠٠

الشاحنة الهولنديّة: الخزّان

نحن عراقيون
قتلْنا ملكاً في ٥٨
ونحن الآن، طماطمُ، في ثلاّجة شاحنةٍ
تدخل من هولندا
لتُسَلِّمنا، موتى، بردانينَ. . .
لماذا؟
هلْ لي أن أسأل توني بْلَير:
إن كنتَ تريدُ لـ «لندنَ»
ألاّ تُمسي «مستعمَرةً» لعراقيين
فلماذا لا تطردُ صدّامَ الواحدَ
كي نرجعَ نحنُ،
ونحن ملايينٌ أربعةٌ
نحن ملايينٌ أربعةٌ من عشرين. . .
١/ ٥ الأرضِ
و١/ ٥ خطوطِ العرضِ
و١/ ٥ القرن الواحدِ والعشرين. . .

لندن، ١٩/ ٥/ ٢٠٠٠

الحديقة المنزلية

لن تكون حديقتُكِ اليومَ
أو بعد عامينِ
أجملَ من مقبرةْ. . .
أنتِ في ساوِث إيلنغَ
والمقبرةْ ـ
بعد عشرين متراً إلى الغربِ
عشرين متراً، فقط. . .
ربما أقبلتْ في المساءِ القططْ
ربما قطع الثعلبُ، السورَ، فجراً
ربّتما انفتحت وردةٌ
غير أن الحديقةَ، مثلَكِ، تمضي بطيئاً
لتدخلَ في المقبرةْ. . .

لندن، ٢٣/ ٦/ ٢٠٠٠

الطائرات

تمرقُ الطائرات
عبر نافذتي، كالزوارقِ
ـ هذا الضحى مُشْمسٌ ـ
والسماءُ، إذاً، هي زرقاءُ. . .
يحلو ليَ اليوم أن أستظلَّ بتفّاحةٍ
أو أطيرَ على ريشةٍ
أو أنامَ إلى أن تنبِّهني شوكةُ العقربِ. . .
. . . .
. . . .
. . . .
الطائراتُ التي مرقت سوف تتبعها طائراتٌ
وهذا الضحى مشمسٌ
والسماءُ الغريبةُ زرقاءُ،
أمّا أنا
فسأسحبُ، حتى نهايات رأسي، الغطاء. . .

لندن، ٢٠٠٠/٦/٢٣

أُمْنِيَةٌ

يلزمني، هذا اليومَ، قليلٌ من ماءٍ
وقليلٌ من خبزٍ
وكثيرٌ من رملٍ...
يلزمني بحرٌ
أو صحراءُ...
وإن كان الرُّبعُ الخالي لي وطناً
فلماذا أتوطَّنُ
أو أستوطنُ؟
. . . .
. . . .
. . . .
لا يلزمني غيرُ قليلٍ من ماء
وقليل من خبزٍ...

لندن، ٢٣/ ٦/ ٢٠٠٠

Diamonds

ماسٌ على السياج
ماسٌ على أوراقهِ، داكنةِ الخضرةِ
والماسُ على ما يُحكم الرَّتاج
في منزلي . . .
ها أنذا، أضيعُ بين الماس والماسِ
مَناجمي : الأوراقُ إذ تخضَلُّ من أمطار أمسِ
المسِّ،
والمَلْمسِ
والماسِ الذي أمسى الأظافيرَ . . .
. . . .
. . . .
. . . .
مساءٌ
سوف يُنسى
مَيْسُها، مَتْنُ الفراشي الخشنِ، الصوفُ
الذي يجرح ردفيها . . .
هي الماسُ الذي يحمرُّ

يخضرُّ
ويصفرُّ. . .
سأنسى الماسَ
أنسى الناسَ
أنساها. . .
ولكنْ لستُ أنسى مَيْسَها
مَتْنَ الفراشي الخشنِ
الصوفَ الذي. . .

لندن، ٣٠/٦/ ٢٠٠٠

عجائب

لو كانت السماء
غائمةً،
لما رأينا زرقةَ البحرِ ولا الغبشةَ فيها. . .
أتُرى، إن كانت السماء
زرقاء هكذا،
فمن أين أتانا المطرُ الصائتُ كلُّهُ؟
. . . .
. . . .
. . . .
منذ ثلاثٍ
وأنا أغيمُ
والسماءْ
صافية؛
والمطرُ الصائتُ أجراسٌ من الهواء.

لندن، ٥/ ٧/ ٢٠٠٠

حياة صريحة

(٢٠٠١)

١

القصيدة مهداة إلى فلاح الجواهري

أمِّي،
قالتْ لي يوماً:
«يا ولدي،
حينَ أتيتَ إلى هذي الدنيا
أحسستُ بخطفة برقٍ في عينيّ. . .»
وأمي تعرف أني أعرفُها
لم أنظر في عينيها، لم أعرف لونهما
(لا شكَّ هما سوداوان)
لكني أشعرُ كلَّ مساءٍ أني أتباركُ
بالدمع المنهلِّ من العينين عليَّ. . .
أنا، الابنِ الضالِّ، المسكينِ
الضائعِ بين سماوات القاراتِ
كنجمٍ أفْلَتَ. . .
. . . .
. . . .
. . . .

يا أمِّي:
غطِّيني بحرير ترابِكِ
بالنور الدافقِ من عتمة قبرِكِ
غطِّيني بالفوحِ
ولونِ حليبكِ. . .
ما هذي القريةُ، يا أمِّي؟
يا ما طوَّفْنا في الطرقاتِ
ويا ما أطْلَلْنا من شرفاتٍ نسألُها عن معنى
لكني لم أعرف، يا أمي
إلا قبل ثلاثة أعوامٍ، أنّ الدنيا سجنٌ
يسكنه موتى. . .
لم أعرفْ، إلا قبل ثلاثة أعوامٍ
أنكِ، وحدَكِ، كنتِ صديقةَ عمري
وحديقةَ أحلامي. . .

■

كنا في كوخٍ من سعفٍ وجذوعٍ
كوخٍ في بستان النجديِّ
بناه أبي بيديه العاريتين. . .
الجدولُ يلمس باب الكوخ
ويلحسُ أطرافَ القدمين بأسماكٍ من فضَّةْ.
ما كان الكوخ لنا منتجعاً صيفيّاً ـ
كان المنزلَ. . .

أذكرُ أنّا كنّا نهبط في الماءِ
ونلبطُ في الماء
ونمسكُ سطحَ الماء كحيّاتِ الماءِ
لقد كنا الفقراءَ
ولا نعلمُ أنّا فقراءُ. . .
. . . .
. . . .
. . . .
ولكنّ الصيف سيمضي
لتغور إلى القاع الأسماكُ وحيّاتُ الماء
وستأتي الأمطار
سيأتي البرد
ويأتي جوع الزرزور. . .
ونَبْتَلُّ، ونحن نيامٌ، بالمطر المتنزِّلِ من سقف الكوخِ
ونضحكُ
نضحكُ
مرتجفين، نُقضقضُ أسناناً أرعدَها البردُ
وأطرافاً أنهكها الجوعُ
وأسألُ أمي عن مأوى. . .

■

الآن
أكاد أرى وجه أبي الغائمَ. . .

ـ ما أبعدَ هذا المنتبَذَ البحريَّ بأبراج كنائسهِ
عن قريتنا، حيث يغيم النخلُ ـ
ولكني أُغمضُ عينيَّ لأبصرَ وجه أبي. . .
كان جميلاً
جَدِّي قال له في المهدِ:
«أنا، أسميتُكَ يوسفَ. . .»

. . . .

. . . .

. . . .

لا أتذكَّرُ أني كلّمتُ أبي
لا أتذكّرُ أنّ أبي كلّمني. . .
لكنّ الوجه يلحُّ عليّ الآن:
كوفيّتَهُ البيضاءَ
الأنفَ المرهَفَ
والعينين الواسعتين. . .
هل لي أن أسألَ إن كان أبي أجلسني
كالعصفورِ
على كتفيهِ؟
لماذا لم أسألْ أمِّي عنهُ؟
أتراني كنت أضنُّ بصورته البيضاء على الذكرى؟
هل كنت أُكَوِّنُه؟

هل كنت أُشكِّلُه حسبَ هوايَ،
وأمنحهُ الصورةَ؟
. . . .
. . . .
. . . .
والآنَ. . .
وفي هذا المُنتَبَذِ البحريِّ
(المطرُ المتقطّعُ منذ الفجر اغْتَزَر. . .)
استروحتُ شميماً من دشداشتهِ. . .

٢

جلستْ دمشقُ، صغيرةً، في راحة المعشوقِ
تضفر، دون أن تدري، منائرَها، جدائلَ
ثم تلبسُ ليلَها ذهباً...
وتَأْرَجُ غوطةً، جوريّةً
ومساحباً للزعتر البريّ والرمّانِ...
ما أبهى دمشقَ!
وما أَحَنَّكِ خطوةً أُولى إلى المنفى...
سأذكرُ أنني علّقتُ خلف الجامع الأمويِّ بيرقَ رحلتي
وفتحتُ باباً لا أزالُ أسيرَ ساحتهِ:
العريشةِ، والطيورِ، وزهرةِ اللبلابِ
والزُّلَّيجِ، أزرقَ أخضرَ...
ابتعدتْ سماءٌ
وادَّنَتْ
وتبادلتْ مدنٌ مواقعَها
تبدَّلتْ العوائدُ...
غير أنك لا تزالين الصغيرةَ، ذاتَها، في راحة المعشوقِ
خطوةَ دربه الأولى إلى المنفى

وبيرقَهُ. . .
سلاماً!
كان ذلك نصفَ قرنٍ، يا دمشقُ
وكنتُ من الأُلى حفروا الخنادقَ حول اسمكِ يا دمشقُ. . .
ألستِ أنتِ الراحَ والريحانَ
والصيفَ المؤرَّجَ بالندى؟
لك طَلُّ هذا الليلِ إذ ينهلُّ
أغنيةُ المدائحِ كلِّها
وصريرُ بابٍ لا أزالُ أسيرَ ساحتهِ. . .
عميقاً في دمشق!

■

تأتي الكويتُ إليَّ، عبر السورِ، حيث أجاورُ الصحراءَ
كان البيتُ شيئاً كالتخومِ:
البئرِ
والرملِ الذي يعتاش ممّا تقذفُ الصحراءُ،
يربوعاً نحاولُهُ
وضَبّاً لا يحاولُنا
فيدخلُ خِلْسةً من مَسْرَبٍ في السورِ،
قد كنا الثلاثةَ، إخوةً ضاعوا:
الفلسطينيَّ
والسوريَّ
والغاوي العراقيَّ. . .

المساءُ مضمَّخٌ بروائحِ الصحراءِ. . .

. . . .

. . . .

. . . .

أحياناً يقلِّبُ «خالدُ المسعودُ» أوراقي
يقولُ:
«هَلا! شيوعيٌّ على أرض الكويتِ. . .»
البحرُ عند «السالميّة» مطمئنُّ الموجِ
سوف نبيتُ ليلتنا هنا
ونُسامرُ الأمواجَ، يا. . .
ما أغربَ الأزهارَ، في البَرِّ:
الربيعُ يُقيم خيمتَه، ويدعونا إليه
إلى عرائسِه
التي قفزتْ من البحرِ. . .

. . . .

. . . .

. . . .

الكويتُ بعيدةٌ
بيتي بعيدٌ
والنساءُ خذلْنَني
وتبعْنَ غيري. . .

■

أنا من يَعدُّ أصابعَ الكفِّ الوحيدةِ
كي يعيدَ حسابَها،
ويعدُّ ثانيةً...
فيخطئُ؛
غير أني حين تأتي القيروانُ
أقولُ: هذي الأرضُ أرضي،
حَرُّها، وغبارُها، ونساؤها الخفِراتُ...
لي منها التمهُّلُ:
آيةٌ للذِّكْرِ أتلوها
وعتمةُ مسجدٍ
وبخورُ زاويةٍ بلا معنى سوى ما يهدم المعنى.
ولي منها التبذُّلُ:
حانةٌ أكلتْ مقاعدَها القناني والشتائمُ
كلَّما غادرتُها عادتْ
أرائكُها الدمقسُ، وقولُها الرؤيا...
ولي منها التحوُّلُ:
أن أُنَقِّلَ في القرون دواخلي وخُطاي
مشتبكاً بتاريخي
أسيرُ مع الجنود، اليوم، نحو البحرِ
أو أغفو غداً، فتكون تمبكتو
أنا التاريخُ

والريحُ التي لا ترحمُ التاريخَ . . .
مَن يهذي؟

. . . .

. . . .

. . . .

هلاليّون نحنُ
وحظُّنا أن نذرع الدنيا!

٣

كانت أيام شباط ٦٣
قارسةً. . .

في مرابع قبيلة الزولو (بجنوبيّ إفريقية) يُقتل الأطباءُ السحرةُ الذين خرقوا القانون، قتلاً غريباً.
يُذبحُ ثورٌ، ويُسلَخ، ثم يخاطُ على الرجلِ المذنبِ، داخل الجلد الطريّ، ويُترك في العراء مكشوفاً.
عند الغروب يكون الرجل مات؛ كان بمقدوره أول الأمر، أن يتنفس من خلال الثقوب، لكنّ الجلد ينكمش، بطيئاً، مع الوقت، فيُخمد أنفاسه.

كريدو مُتْوا

من كتابه «شعبي»

والفندقُ غادَرَهُ الناسُ سريعاً في الفجرِ
هبطتُ إلى الصالة:
ليس بها غير غرابٍ يتنكّر في هيئةِ فلاحٍ
كوفيّتُه بيضاءُ
وعيناهُ على التلفزيون. . .

لم يكن تْسيلا من قبيلة الهوسا، قَطُّ. كان ابن سفاحٍ، جاء إلى مرابع الهوسا شابّاً في العشرين. حصل على قطعةِ أرضٍ حيث ابتنى كوخاً. جمع حوله عصابةً من القتلة والمطرودين، وسرعان ما صار يُرهب المنطقة كلَّها من موقعه بجبال ماتولا. كان نحيفاً، ناصلَ لون البشرة، ذا مزاجٍ عكرٍ. في عينيه حَوَلٌ خفيفٌ، وفي فمه التواءٌ دائم. كان شجاعاً، متهوِّراً، قاسياً، يقتل بدمٍ باردٍ، ويشرب كثيراً. هوايتُه نهبُ الماشية، واغتصابُ النساء.

ك.م

أبيضَ
أسودَ
كان الشارعُ،
أسمعُ إطلاقَ رصاصٍ
تمرُقُ طائرةٌ سوداءُ...

. . . .
. . . .
. . . .

إلى أين سأمضي؟
من يُلجئني في هذا الصبح البارد؟
من يمنحني البسمةَ والشايَ؟
الشارعُ يقفز أكثرَ
أبيضَ

أسودَ
أسمعُ خَطوي. . .
أنا وحدي في الشارعِ.
أين سأمضي؟

■

كان البحر قبالةَ بيروتَ صقيلا
مثل الشارع قبل الحربِ. . .
وكانت أوراقُ الحُبِّ مبعثرةً مثل مُقَوَّى أيّوبَ؛
أنا في الدور الثامنِ:
أكتبُ يوميّاً
أسكرُ يوميّاً
وأنامُ قليلاً. . .
البحرُ هنا، في هذا الشاطئِ
من إيست بورن EAST BOURNE
يدفع أمواجاً ونوارسَ
نحو الشارعِ. . .

أحمد الزين، الروائي الآن، أعطاني الشقّة. جاء شقيقُه الأكبرُ ليأخذه من بيروت إلى طرابلس. ترك لي أحمد زيتاً ومؤونةً، وسؤالاً عن الحياة. الشقة تطل على السفارة الألمانية المغلقة. رأس بيروت يشتعلُ بالاحتمال. أمس رأيتُ امرأةً تقاتلُ.

كان البحر قبالةَ بيروت ثقيلا
مثل رصاص السفنِ الحربيةِ. . .
مثل هدير صواريخ الطيران الإسرائيليّ،
ومثل حياتي. . .
أين سأمضي؟
أتكون فلسطين الثورة دائخةً مثلي؟

فلاح الجواهري، الرسّام الآن، أعطاني الشقّة. جاء صديقه ليأخذه إلى النورماندي. ترك لي رسومه المائية، وأوصاني أن أسدل الستائر، كي لا تدخل الشمس الغائبةُ دوماً. الشمسُ التي لو طلعتْ لأتلفتْ رسومه.

أنا في شقّتيَ الأرضيةِ
لا أبعُدُ إلا عشراتِ الأمتار عن البحرِ
تداهمني صيحاتُ النورس في الفجرِ
فأفتحُ عينيّ على صمتي
وعلى النّمر المربوطِ بقبوِ البيتِ. . .
وأقولُ: لماذا؟

سعدي يوسف، صديقي الآن، أعطاني هذي الغرفةَ الطائرة. أمّا هو ـ أعني سعدي ـ فقد قدَّم قلباً للّجوء السياسي بلا

معنى. تركَ لي أوراقَه بيضاء، وشراشفه بيضاء، وخصلاتهِ بيضاء. عجيبٌ أن أكون في غرفته الطائرة... ربما أمسيتُ مثله!

كان البحر قبالةَ بيروت جميلاً
كان الخطرَ الأولَ
والموقعَ
والمنزلَ
كان الموجةَ والمدفعَ
كان البحر، قبالةَ بيروت، يواجه معنى البحر...

■

طابورُ الدبّابات الروسيّة يحرثُ ساحلَ أبْيَنَ
نحو عدنْ...
وسحابةُ بارودٍ وسوادٍ تحجب كل سماء عدنْ
جبلٌ بركانيٌّ يتفجّرُ
يدفع كل ذخيرةِ جيش الفقراء
إلى الرئة الكبرى...
يدفع بالنيران الحمرِ، الصفر، البيض، الخُضرِ
إلى رئتي...
أنا، في المدرسة الحزبيةِ
بيتي في مرمى الهاونِ...

بعد قليلٍ يقتحمُ الجبليّون ذوو الجِلدِ الرثِّ
المدرسةَ الحزبيةَ. . .

هذه المدينة ستُؤخذ. إن لم يكن ذلك بأيدينا، ففي الأقل بأيدٍ أخرى مثل أيدينا، لكنها أقوى. أقوى ربّما لأنها تصلّبتْ أفضل بسبب ضعفنا. ولئنْ هُزِمنا، فإنّ رجالاً يختلفون عنا تماماً، ويشبهوننا تماماً، سوف يسيرون، في مساءٍ مماثلٍ، بعد عشر سنين، أو عشرين (لا يهمّ الزمن) على الشارع نفسه، متأملين في الظَّفَر ذاته. وربّما فكّروا بدمنا. الآن، أنا أراهم وأفكِّر بدمهم الذي سوف يراق أيضاً. لكنهم سيأخذون المدينة. قال داريو: أما القلعةُ فلسوف نستولي عليها من الداخل.

فكتور سيرج

لا ماءَ،
ونحفر في الرمل عميقاً. . .
لا ماءَ
ونحفر في الروح عميقاً
لا ماءَ. . .
وطابورُ الدبابات الروسية يحرث ساحلَ أبْيَنَ
نحو عدن. . .
وعقيدٌ روسيٌّ (كان يدرِّسُ فلسفةَ)

يهمس لي: انتهت القصةُ. .
قلتُ: ولكنّ الناس تقاتلُ في الشارعِ
قال: ألا تبصر طابور الدباباتِ؟
سنرحلُ بعد غدٍ. . .
قلتُ له: لن أرحلَ. . .
كم كنتُ ـ وحتى هذه اللحظةِ ـ مفتوناً:
أنا، حقّاً، لم أرحلْ. . .
. . . .
. . . .
. . . .
لكنّ البحر الأحمر يأخذني
البحرُ الأحمرُ يأخذني تحت ستار رصاصٍ وقذائفَ.
منبطحاً. . .
أهجسُ تحتي عشبَ الساحلِ رَطْباً
وتئزُّ على رأسي صَلْياتُ الرشّاشاتِ؛
هنا أيضاً نخرج من بيروتَ
ولا نحمل غير حقائبَ خيشٍ
وهنا أيضاً يدفعُنا الملجأُ نحو البحرِ. . .

ليس لنا أن نكون محبوبين!
علينا أن نكون دقيقين، واضحين، أقوياء عنيدين، مسلَّحين:
كالمكائن. . .

علينا أن نضع أمامنا مشروعَ هَدْمٍ ضخماً، وأن نرتمي فيه بكل ثقلنا، إذ لا حياة لنا ما دام العالم على حاله.

ف.س

سأحملُ
مثل البهَقِ الناصعِ
ناموسَ الثورةْ...

٤

■ موقف السيبة

لا يمكن أن تلمح «شطَّ العربِ» المتمهلَ قربكَ
إلا من زاويةٍ يصعبُ أن تأخذَها. . .
زاويةٍ تبدأ من أقصى قضبان الموقف حتى وجه الشرطيّ الحارسِ؛
تحتدّ الزاوية الصعبةُ
يحتدُّ النبضُ
وفي البُعدِ ـ القربِ، يُلَوِّح نهرٌ
وتَلوح قواربُ،
لكنّ عناق النهر، أشقُّ هنا، من أي عناقٍ لامرأةٍ. . .
يتيبَّسُ عنقُكَ ملتوياً
والشرطيُّ سيصرخُ:
إن لم تجلس في ذاك الركنِ
جَلدْناكَ إلى أن تدمى
مشدوداً بالحبلِ إلى فَحْلِ التُّوتِ. . .
. . . .
. . . .
. . . .

النهرُ يواصل رحلَتَه نحو البحرِ
يواصلُها
مختفياً عن عينيكَ
ومحتفياً بك في الحلمِ. . .
«السيبةُ»:
أبناءُ الخالة ينطلقون بزورقهم
بحثاً عن أخشابٍ أو أطعمةٍ يلقيها البحّارةُ
و«السيبةُ»:
عُطلتكَ الصيفيّةُ
والمعبرُ نحو الضفة الأخرى. . .
و«السيبةُ»:
مأواك الآن
وماؤكَ
والقضبان. . .

■ سجن نقرة السلمان:

ما بين بادية «السماوةِ» والحدودِ العائمات من الدمِ الوثنيّ والرملِ، الحدودِ المستجيرةِ من نهار الوقْدِ والأحقادِ بالليل الذي ترتادُه الذُّؤبانُ، ليلِ البردِ والتهريب، كانت «نقرةُ السلمان» ترفع سورَها وتردُّ عن أبراجها العشرين أفواجَ القبائل والجرادِ. أكان جونْ

غْلُوب يعرف أن قلعته ستغدو سجنيَ؟ البدوُ الأُلى كانوا المغيرينَ العتاةَ استبدلوا بجِمالهم عجلاتِ تويوتا، وبالحصنِ المطيَّنِ ناطحاتٍ للسحابِ، وبالخيولِ بُراقَ «جَمْبو جَتْ». أقاموا في متاهِ الرملِ عاصمةً وسمَّوها الجِنانَ، وهكذا سيقول لي نوري السعيدُ: «اسمعْ! أطعْ! العقْ حذائي أو أقِمْ في نقرة السلمانِ. . .

. . . .

. . . .

. . . .

مندفعٌ قطارُ الموتِ بين معسكر الوشّاش أو سجنِ الرشيد العسكريّ وبين أغنيةِ النّواحِ. أكُفُّنا

تهوي على البابِ الحديدِ، تَدقُّ، دُقَّ، تدقُّ

دُقَّ، تدقُّ، دُقَّ، تَدقُّ، دُقَّ. . .

وهل يوارينا قطارُ الموتِ مندفعاً إلى أن تنشفَ

الأجسادُ فيه، فيستوي قبراً من الفولاذ؟

لم تعد الأكفُّ تدقُّ. لم تعد الأكفُّ. ولم تعُدْ.

لم. . .

كانت الأنفاس تخبو، والعيونُ تغيم، والأيدي

تَهَدَّلُ؛ والقميصُ العسكريّ كخرقةٍ مبتلّةٍ.

يمضي القطارُ مقعقعاً.

تمضي المحطاتُ الصغيرة في الفضاء بهيمةً، كالليل.

والهدفُ: السماوةُ!

. . . .

. . . .

. . . .

«نقرة السلمان» هادئةٌ. وكنّا هادئينَ
مع المساءِ. الليلُ في الصحراء يرسلُ بردَهُ
ونجومَهُ. . .
في بغتةٍ، يلقي قطارُ الموت، مختضّاً، حمولَتَهُ.
«السماوةُ» أقبلتْ بالماءِ والأسماءِ؛
أمّا نحن، نحن الهادئينَ، المترعين بنعمةِ
السجنِ الغريبِ، فإننا قد نُرهفُ الأسماعَ.
قد نُصغي إلى الأرض التي شهدتْ مَواطئَنا
سنينَ
سنينَ
سوف نظلُّ أحراراً. . .

■ سجن بعقوبة

كالنهر، ينعطف الطريق مضمّخاً بالبرتقال
مبللاً، بالظلِّ،
والجسرُ يبدو عابراً؛
فالماءُ ثَمّتَ. . . في الغصون وفي الهواء
كأنّما «بعقوبةُ» السّلوى، وقد لمّتْ عناصرَها

أرختْ كفَّها الخضراءَ

فانبسطتْ. . .

. . . .

. . . .

. . . .

ولكنْ، ما وراء الانعطافة

سوف يعلو السجنُ

سوف يقول للآتين، بالصفعات والركلاتِ:

«جئتم كي تقيموا في عروقي

تصبحوا لحمي

وأنفاسي

تكونوا السجنَ». . .

. . . .

. . . .

. . . .

كان السجنُ مكتظّاً

وكنا في مساءٍ شاحبٍ نأوي إليهِ

وقد خبتْ أحداقُنا من رحلة الصحراء

تطوينا كحزمةِ عوسجٍ. . .

هنا سنقيمُ

صفّاً بعد آخرَ، نحسِبُ القضبانَ

نخرج بُرهةً لنحرِّكَ الأطرافَ
ثم نعودُ
مرتبكينَ
أشباحاً
إلى زنزانة النسيان
حيث السجنُ نحنُ
وحيث لا يتشكل السجّان.

٥

■ وداد

كانت ودادُ صغيرةَ النهدينِ
أصلبُ من سفرجلةٍ وأجملُ، نهدُها
الشفتان سوداوانِ
من قُبَلي. . .
وسُرَّتُها محارةُ لؤلؤٍ؛
بيضاءَ كانت إذ نضت عنها القميصَ
وغمغمتْ: حُبِّي!

. . . .

. . . .

. . . .

ودادُ، الدفقةُ الأولى لنبعي
الدفعةُ الأولى
وأوّلُ من أحِنُّ لهُ،
وقد عصفتْ بنا، وبأهلنا، الأبراجُ
واخترقتْ زجاجةَ عُمرنا الأمواجُ
ماذا، يا ودادُ؟

فأيَّ خطٍّ للقطار سلكتِ؟
أيُّ سفينةٍ عبرتْ بكِ الدنيا؟
وأنَّى. مرّةً، أوطنتِ؟
. . . .
. . . .
. . . .
يوماً، في المتاهةِ، جاء صوتُكِ. . .
كنتُ مرتبكاً
وقد أدميتُ، في استغراقتي، شفتي
إلى أن ضاع صوتُكِ في سديم العالم القاسي
. . . .
. . . .
. . . .
سأبحث عنكِ
أبحثُ عنكِ
حتى أنتهي من هذه الدنيا

■ آني
يا آنُ،
يا آني. . .
أنا!

لم تتركي شيئاً:
مصصتِ يدي، أصابعَها
وعُضوي
والندى المنهلّ من عُضوي...
شربتِ
وما أكتفيتِ؛
فهل تُعادُ القطرةُ؟
ابتعدي قليلاً،
غادِري، حتى ولو في جُبّةِ النّعسانِ
واتَّرِكي على ثلج المُلاءةِ
ما أسَلْتِ:
الصَّمغَ والدّمَ والسفرجَلَ
والبَخورَ...
....
....
....
سأحتفي بكِ...
أختفي بكِ،
أمهليني لحظةً، لأنامَ
عنكِ...

■ أوكتافيا

تقوم الليلَ، أوكتافيا، قياماً
وتهجرني إذا طلعَ الصباحُ
أحاولُ مُهْرَةً فتروغُ طيرا
وألمُسُ جمرةً فالروحُ راحُ
على قسَماتها ضوءٌ وظلٌّ
وتحت ثيابها قصصٌ مِلاحُ
تظل تطوف في الحانات حتى
تقولَ الكأس: أينَ بنا يُراحُ؟

بين السادسةِ، الصبحَ
والسادسةِ، المغربَ
تُمضي أوكتافيا يومَ العمل القاسي
في إحدى الحاناتِ
تقدِّمُ خمراً
وتُعدُّ شطائرَ
أو تضغطُ قهوةَ اكسبرسو...
أحياناً تخرج من خلف الكونتوارِ
لتوصلَ فنجاناً أو كأساً
(رَبُّ العملِ المتحفزُ كان يهودياً)..

وأوكتافيا ترى العسلَ المصفَّى
بكأسٍ ملؤها ماءٌ قُراحُ
إذا سكرَ الزبائنُ قدَّمتْها

لهم جَرَساً، فراحوا واستراحوا
أراقبُها على بُعْدٍ، مكاني
بأقصى الحانِ، أسمعُ ما يتاحُ
فإن حلَّ المساءُ دنوتُ منها
لأصحبها، فتصحبني الرياحُ
كأنّ شميمها راووقُ خمرٍ
تكدَّسَ في حوافيهِ الأقاحُ!
تخرج من حانتها
(حيث العمل المأجورُ)
لتدخلَ في أُولى حانات الشارعِ؛
لكنّ لأوكتافيا الآنَ، الأُبَّهةَ المثلى. . .
تختار لنا طاولةً
تجلسُ، عنقاءَ، وقد وضعتْ في بهجتها
الساقَ على الساقِ
وتومئُ كي تأتيها ساقيةٌ،
تطلبُ ما تطلبُ. . .
تغمزُ لي:
ها أنذا حُرَّةْ!

٦

■ بار جبهة النهر

أبحثُ عن هذا البارِ
وتبحث عن هذا البار معي
أرملةٌ ضيّعت ابناً في الليلِ
نُسائلُ عن ضفةٍ
ورصيفٍ ينأى أمتاراً عن ضفةٍ
ونُسائلُ عن أخشاب الهندِ
وقد نبتتْ لبلاباً ونبيذاً
وملابسَ بحّارةْ. . .
. . . .
. . . .
. . . .
في أيام تبدو الآنَ سماءَ خريفٍ
وطيوراً متطامنةَ الطيرانِ. . .
ولسعةَ بردٍ رطبٍ،
في تلك الأيام دخلنا محتفلين إلى البار
خفافاً

وخرجنا محتفلين
ثقالاً
ثم نهلْنا ماءً يتقطَّر من سعف النخلِ
مزيجاً بضباب النهرِ
وبالملحِ
وبالعَرَق المتبقي من أنخاب البارِ. . .
. . . .
. . . .
. . . .
لماذا لم نجلس في الحانةِ
حتى تبيضَّ سوالفُنا؟
ولماذا غادرناها قبل الغَبَش الباردْ؟
ولماذا لم نجلس في الحانةِ
حتى تنجابَ فصولُ العالمِ عن فصلٍ واحدْ؟
فصلِ ربيعٍ أبديٍّ
وغناءٍ خالدْ؟
. . . .
. . . .
. . . .
إن طالت رحلتُنا،
فلأنّ الحانة ضاعتْ؛ مَثَلاً:
بيعتْ للتجار وللقوّادين

أو غرقتْ
أو دُكْتْ بمدافعَ من أممٍ شتّى
وجيوشِ سماسرةٍ جشعين. .
. . . .
. . . .
. . . .
لكنّا،
لكني (أتحدَّثُ عن نفسي حسبُ)
سأبلغُها
حتى لو أفلَ العمرُ
وخلَّف لي بضعَ سنين!

■ الحانة الأولى
حانةُ سيدوري
عند البحر تماماً
لا تبعد غير ذراعين عن الماءِ
(البحرُ هنا يهدأُ. . .)
لكنّ الأمواجَ تُرشرشُ أحياناً بابَ الحانةِ
رَشْ. . . رَشْ. . .
وطوال الليل توشوشُ. . .
عبر القصب المتطاول غاباتٍ في البُعد توشوشُ

طولَ العمر توشوشُ
يأتي الملاحون إلى حانة سيدوري
والفلاّحون. . . نَعَم!
(كانت أوروك تفيض ثراءً)
والحانةُ كانت وشوشةً ووساوسَ
كانت تعبر أسواراً
وبحاراً
وبحيراتٍ
وتَغَلْغَلُ من أبوابٍ مغلقةٍ
وثيابٍ مقفلة الأزرارِ
وآذانٍ لم تسمع غير تراتيل الكاهنِ. . .
. . . .
. . . .
. . . .
حانة سيدوري
تكتب في أوروكَ رقيمَ سؤالٍ
سيظل سؤالاً. . .
سيدوري ليست ساقيةً
هي ماثلةٌ، حقاً، بين دنان الخمرِ
ورائحةِ البحّارةِ
والمرتحلين. . .
ومائلةٌ، حقاً، بالنهدين إلى الملكِ المتنكرِ

(كانت عرفتْهُ . . .)
لكنّ لسيدوري أبّهةَ امرأةِ المعبدِ،
يأتي الناسُ إليها من آخر عالمهم
من أسوار مدائنهم
من قَصْباءِ قُراهم
والناسُ، إليها، يستمعون
أما الخمرُ
فليستْ غير تضرُّجِ خدٍّ
ورفيفِ فمٍ
وبريقِ عيونٍ . . .
. . . .
. . . .
. . . .
حانةُ سيدوري بابُ البحرِ
وحانةُ سيدوري: البابُ إلى ما لا يُغْلقُ
والبابُ إلى ما لا يُفتَحُ،
حانةُ سيدوري:
البابُ إلى بيت المجنون . . .

■ خواطر في البار الإيرلندي

صيحاتُ طيرِ البحر توقظني، فأفتحُ مقلتيَّ على الكنيسةِ. شارعٌ خالٍ. نهارَ السبت. لن أسقي نباتات الحديقةِ، فالسماءُ تغيمُ. ماذا

يحملُ المطرُ المؤجَّلُ لي؟ أغمغمةَ اسمِها؟ قسَماً بمائكَ أيها النهرُ البعيدُ لأُحْسنَنَّ قراءةَ الأنواء والأهواء. . . لي كونٌ أراه الآن في كفّي. أقَلِّبُه. أُرقِّصُه كخرزة عاشقٍ زرقاءَ. أقذفُه قليلاً في الهواءِ وألتقيهِ. الطفلُ يلعبُ. غير أن طفولة الفقراءِ تطوينا بلا لُعَبٍ. من الصلصالِ نَبْرأُ سلحفاةً، ثمَّ نأكُلها. جياعٌ نحن. هذا العالَمَ القاسي سيُصبحُ في غدٍ، أقسى. ضبابٌ في الصباح. وعبر مسالكِ الكورنيش كان الأغنياءُ المتخَمون يهرولون. هياكلاً منخورةَ الغُضروف كانوا. لَلّصوصِ كتيبةٌ أيضاً. . . لماذا لا أُقلِّبُ في الهواءِ العالَمَ المنحطَّ؟

أقْلبهُ إذاً!

لأرى على باب الكنيسةِ جسْمَهُ يهتزُّ مقلوباً. . .

. . . .

. . . .

. . . .

صيحاتُ طيرِ البحرِ توقظني، فأفتحُ مقلتيَّ على الفنادقِ. ثمَّتَ الغُرفاتُ عاليةٌ وغاليةٌ. وفي الأَبهاءِ، في خَبْتِ المساءِ، تهفُّ أرديةُ الحرير، ويصطفي الساقي نبيذاً نادراً، أوصى به اثنانِ يعتنقانِ. طاولةٌ بعمق الرُّكنِ مُزهرةٌ. عشاءٌ من غِلالِ البحرِ. تمضي ساعتان، وينهضُ الاثنان معتنقينِ. . . تبدو البنتُ سكرى في تَرنُّحها. سيُفتح مصعدٌ.

ستكون أغطيةُ الفراشِ نظيفةً جداً.

هي الغُرفاتُ عاليةٌ وغاليةٌ. . .

سأدخلُ قاعةً في «نقرة السلمانِ» أبحثُ عن مكاني!

. . . .

. . . .

. . . .

صيحاتُ طير البحر توقظني، فأفتحُ مقلتيَّ على رفاقي.
راحوا، وما ارتاحوا. ولا تركوا على زند الحبيبةِ
مِيسَماً. أخذتهمو الشركاتُ والشبكاتُ والدولُ
الحقيرةُ. بعضُهم ما زال يسلخ جلْدَه المسلوخَ
حتى استعربتْ من شأنه الأفعى، وبعضهمو تعمَّدَ
سَمْلَ باصِرتَيه. آخرُ قد تكسَّرت السلالمُ وهو
يجهدُ في تسلُّقها...
سأذكرُ أنهم كانوا
وأذكرُ أنهم راحوا وما ارتاحوا
وأذكرُ أنهم ظلُّوا، وإن رحلوا، رفاقي!

٧

■ شَطُّ العرب

هل أحلمُ، في هذا الصبح الماطرِ،
أن آتيَ صوبَكَ؟
لن تحملني طائرةٌ
لن أرحلَ في غرفة بَحّارٍ
أو في موقد حدّادٍ
أو عبر كهوفٍ من حجرٍ بركانيٍّ ومياهٍ وظلامٍ
أنا آتيكَ وفي كفّي رَسَنٌ لِبُراقٍ
وعلى شفتي أسماءُ عراقٍ أتهجّاها
حرفاً
حرفاً
أتلوها سبع تلاواتِ
ثم أُذَوِّبُها
لأذوبَ بها إذ أشربُها
قطرةَ ماءٍ منك. . .

يا صاحبي، راح من يطوي الفيافي، راح
واظْلَمَّت الأرضُ لمّا اظلمّت الأرواح

يا صاحبي، فَزَّ طَيري من غرابٍ صاح
يا حيفَ «شطِّ العربْ». . . يا خيبةَ الملاّح
سأحلمُ، في هذا الصبحِ الماطرِ،
أن آتي صوبَكَ. .
أن أدخلَ، ملتبساً، كالقطِّ، بمائكَ؛
(قُدِّسَ من ماءٍ). . .
ادخل، كالمجنون، إلى سامرّاءَ
لكي أوثقَ بالحبلِ إلى أحدِ الأعمدةِ؛
امنحْني، يا من قُدِّستَ
المغفرةَ الكبرى
وامنحني، يا من قُدِّستَ
كرامةَ أن أعرى
أن أدخلَ في الماءِ
كما كنتُ
وأن أَنطقَ
في المهدِ المائيِّ صبيّا،
وامنحني الضعفَ
لكي أقوى. . .
يا صاحبي. . . لو ترى في لندن، الأشباح!
تبكي على الحال، أو تبكي على من راح
يا صاحبي، ليتَ ليلى تشعل المصباح
الناس تشكو الضّنى، والخائن المرتاح

في هذا الصبح الماطرِ،
آتٍ، أنا، صوبَكَ. . .
لن يمنعني المطرُ المُسَّاقِطُ مثل دمٍ أبيضَ،
لن تمنعني الفتياتُ الدَّبِقاتُ
ولن يمنعني الأسرى المشدودون إلى صاري كولمبُس
لن يمنعني المترو
لن تمنعني طائرة الكونكورد
ولا طائرُ برجِ الصمتِ
ولن تمنعني نفسي. . .
. . . .
. . . .
. . . .
نهرُ التمرةِ والتكوين
أنتَ، ونهرُ التوت الأبيض والأسودِ
نهرُ التينِ
ونهرُ الأنهار:
بُوَيبٍ
والعشّارِ
وبابِ سليمانَ
وبابِ الدنيا. . .
يا صاحبي، ضاع مني البابُ والمفتاح
والليلُ ما ينتهي، والمغتدَى ما لاح

الأرض ظلّت تريد الورد والتفّاح
لكنها أجفلت من غيبة الفلاّح

■ وادي بني عبد السلام

من أين يأتي، يا بني عبد السلام، النهرُ؟
نهرُكمُ الذي يتشرَّب الفلواتِ
تحت الأرض مضطرباً
ومنسرباً إلى بغدادَ؟
هل يسري به بحّارةُ الليل العُمانيّون
أم يسري به الجنُّ؟
. . . .
. . . .
. . . .
السفينةُ أقلعتْ تحت البراكين التي خمدتْ
وتحت عروق رمل اللّهِ. . .
لم تنشر شراعاً
فالرياحُ تخثَّرتْ في اللوح
وارتسمتْ مجاذيفُ القيامة في صخور الكهفِ. . .
ثمَّتَ منشدٌ أعمى بِكوثَلها
ووردةُ فألِها جنيّةٌ تتقدم القيدومَ؛

. . . .

. . . .

. . . .

يستأني بنو عبد السلام الفجرَ. . .

ضوءُ رطوبةٍ

وندىً على الشِّيحِ المفضّضِ

لن يؤذِّن شيخُهم

سيكون أولَ من يزيح الصخرةَ السوداءَ

أولَ من يزيح مَغالقَ البركان عن كهف الجِنانِ. . .

الآن، يسألُه بنو عبد السلامِ:

نريدُ سفينةً

فُلكاً نحاولُه إلى بغدادَ

لوحاً طافياً

جذعاً. . .

وإلاّ، سعفةً

. . . .

. . . .

. . . .

والشيخُ يدخلُ في المغارةِ

والعُمانيون، جَمْعاً من بني عبد السلام، يباركون الشيخَ

يتَّبعون خطوتَه الخفيفةَ. . .

ربما بلغوا، ولو في صمتهم، بغدادَ
رُبَّتَما رأى أحفادُهم بغدادَ. . .
. . . .
. . . .
. . . .
ما أبهى السفينةْ!

■ نهر بشارات

«إلى ممدوح بشارات»

أقربَ من نبضك تهجُسها
أقربَ من بيضةِ رُخٍّ. . .
طبريّةُ تلمع في العُمق، كأنّ الماء بها ينبعُ
من قلب العالم، من مجرىً سريٍّ لم يولَدْ إلا
مكتملاً وعزيزاً. أنت تهمهمُ، والجرفُ ـ السيفُ
يشقُّ الأرضَ كقنبلةٍ. لن يَقربَ من هذا
الجرفِ رعاةٌ سوريّونَ، ولا صيّادو سمكٍ،
جتى أنت تظلُّ بعيداً
لكنك تعرفُ أنك حتى لو كنتَ بعيداً ستظلُّ
الأقربَ. . . سوف تسير إلى نهرِ «بشاراتٍ»
مغتبطاً، والنظرةُ واثقةٌ، والخطوةُ

تسبقُها خطواتٌ في الماءِ، وفي جوهرة الأشياءِ
ترى نخلاً تَسَّاقطُ منه عصافيرٌ وحمائمُ،
والبوّابةُ يفتحها بستانيٌّ أخرسُ، عَلَّقَ
في عينيه لسانين:
ستدخلُ في نهر «بشاراتٍ»، يا مَن ضعتَ
طويلاً، عبر مفازاتٍ لا رملَ بها. . . .
تدخلُ نهرَ «بشاراتٍ» يا من خذلتْكَ الأنهار
وفارقَكَ الأهلُ، ولم يرأفْ بكَ حتى
طابوقُ الأسوارِ. . .
. . . .
. . . .
. . . .
الليلُ سيهبطُ بعد قليلٍ
والقريةُ تلتمُّ على ليل القريةِ
أمّا أنتَ. . .
فلن تسمعَ إلا أغنيةَ النهرِ. . .
. . . .
. . . .
. . . .
الماءُ به، ليسَ الماءَ الدافقَ في طبريّةَ
عذباً وعميقاً

الماءُ بـ «نهر بشاراتٍ» يتدفّأُ مثل الكبشِ
بَجَزَّتهِ،
حرّاً، ومُتاحاً، يجري
يسقي النخلةَ
والنحلةَ
لكنْ لا يشربُه الناس. . .
الماءُ بـ «نهر بشاراتٍ» تسمعُه ليلَ نهارَ
ولكنْ لا تبصرُهُ في كاس.
الماءُ بـ «نهر بشاراتٍ» مختنقٌ بحرارتهِ
مختنقٌ بمرارتهِ،
الماءُ بـ «نهر بِشاراتٍ» محتدمُ الأنفاسِ.
. . . .
. . . .
. . . .
صحيحٌ أن الأمراءَ الشبّانَ يجيئون إلى النهرِ
يعومونَ
ويلهونَ
وأحياناً، من حُبٍّ، يبكون.
وصحيحٌ أن مقاعده بَلِيَتْ
أنّ عرائشَهُ
وعرائسَهُ
خفِيَتْ،

لكنّ النهر يظلّ النهر
سؤالُ النهر يظلّ سؤالَ النهر:
تُرى، إن كان الماءُ فلسطينيّاً
فلماذا لا تشربُه الأزهارُ بأرض فلسطين؟

٢٠٠٠/١٠/١١

٨

أعمى،
أتسوَّلُ في الطرقات، على باب اللّهِ،
امرأتي تعرفُ هذا
يعرفُ هذا اللّهُ،
وتعرفه الطرقاتُ اللائي لم يطرقْها أحدٌ غيري. . .
تعرفه القطةُ
والنملُ الدائرُ حول مساكنهِ يعرفهُ،

. . . .

. . . .

. . . .

فلماذا، أنا وحدي، لا أعرفُ أني أعمى
أتسوَّلُ في الطرقات على باب اللّهِ؟
لماذا أتوهَّمُ أني ذو عشر عيونٍ
ذو عشر خزائنَ،
ذو عشرة أبياتٍ؟

. . . .

. . . .

. . . .

سأظلُّ سعيداً!

١٤/ ١٠/ ٢٠٠٠

شرفة المنزل الفقير

ذلك النهار الممطر

ليسَ لأنّ نهاراً ذا مطرٍ يطرقُ نافذتي مثلَ اللصِّ عجيباً.
ليسَ لأني في هذي الصحراءِ المائيّةِ، ليس لأنّ الشمسَ أقامتْ في
كتُبٍ للرحّالةِ والشّعراءِ، وليس لأنّ. . .
أقولُ: أنا مُضنىً بملائكةٍ ينتظرونَ. الأشجارُ هي الأشجارُ ولكني
أبحثُ عن ظِلٍّ. والمطرُ المُسّاقِطُ ليس مياهاً.
عبرَ خرائطَ في النبضِ تَمَوَّجُ أنهارٌ وسفائنُ من لوحٍ،
وزوارقُ من بُرديٍّ. . . مطرٌ لا يبلغُني. مطرٌ لا تبتلُّ
الشفتانِ بهِ. تلتمعُ القضبانُ الخُضرُ (سياجُ المقبرةِ البولونيّةِ)
بالنورِ المائيّ. وأبعدَ، أبعدَ، تشربُ أزهارٌ وشواهدُ.
لن ألمحَ سنجاباً أو طيراً. أُرهفُ أضلاعي للموسيقى.

كانتْ في الشُّرفةِ. والشمسُ أقامتْ في رُكنِ حديقتها
بيتاً لتلاوينِ الشعبِ، وللورقِ اليابسِ. لم تكنِ المرأةُ تَنظرُ
أو تنتظرُ. المرأةُ كانتْ غائبةً. أنا وحدي كنتُ أُلَملِمُ
صورتَها، والأعضاءَ، وذكرى القُبلةِ في زاويةِ المقهى
يوماً ما. . . ما أنْبَتَ هذا الأخضرَ في الأزرقِ؟ موسيقى.
شمسٌ من جُزُرٍ ذاتِ براكينَ. المرأةُ توشكُ أن تتحركَ،

أن تبدو، أن تتشكّلَ. ها أنذا أَلَمحُ خُصلةَ شَعرٍ
سَبْطٍ. . . مُكتَنَزاً من شفةٍ سُفلى.
موسيقى. والشُّرفةُ تغدو شُرفةَ بيتٍ: طاولةٌ صُغرى.
كرسيّانِ. زجاجةُ خَمرٍ. قدَحانِ. وحبّاتٌ من
مُشمُشٍ إسبانيا. في زاويةِ الشّرفةِ نبتةُ صُبّارٍ.
تلتفتُ المرأةُ. ها نحنُ اثنانِ. سنسكنُ في الشّرفةِ.
سوفَ تجيءُ الشمسُ إلى كأسَينا. سوفَ نرى اللحظةَ.
موسيقى. . .

المطرُ المُسّاقِطُ يَسّاقَطُ.
كنّا خلفَ زُجاجِ الشّرفةِ. والغُرفةُ باردةٌ شيئاً ما.
غُرفتُها كانتْ تَلْتَزُّ برائحةِ الأصباغِ، وضَوعِ
السجّادِ القرغيزيّ. كأنّ رطوبةَ هذا اليومِ التصقتْ
تحتَ قميصي. تمنحُني المرأةُ من شفتَيها الجمرةَ.
هل غَلغلتِ الجمرةَ تحتَ قميصي؟ أحسستُ
بأني طَوّافٌ في أرضٍ ذاتِ عيونٍ ساخنةٍ وتَضاريسَ.
أصابعيَ القدمانِ. وأنفاسي موسيقى وتَرٍ لا تتلاشى.
موسيقى تَصّاعَدُ أو تهبطُ. لستُ أرى مطراً.
عبرَ زجاجِ الشّرفةِ كان الضوءُ شفيفاً.

لكنّ المطرَ المُسّاقِطَ يَسّاقَطُ
هذا المطرُ المُسّاقِطُ يَشّاقَطُ

يَسّاقَطُ . . .
أشعرُ بالمطرِ السّاخنِ

بعدَ دقائقَ، حسبُ . . . سأفعَلُ حُبَّكِ
مثلَ سريرٍ ضَيِّقْ .
. . . .
. . . .
. . . .
موسيقى .

لندن، ٦/ ٩/ ٢٠٠١

انطباعاتٌ مقطوعةٌ عن سياق

دائماً في هذا الخريفِ الذي لا يشبهني
في هذا الخريفِ الذي يشبهني
في هذا الخريفِ الذي. . .
أسألُ عن ورقةٍ واحدةٍ. ورقةٍ واحدةٍ، حسبُ.

لكنْ، ماذا نفعلُ بالأغاني؟
ورقُ الحائطِ مثقَلٌ بالأناشيد
أناشيدِ الموتى
وأناشيدِ مَن يموتون. . .
مثقَلٌ أيضاً بظلٍّ بياضٍ خَفِيّ.

فتاةٌ هنديةٌ
ربما كانت زعيمَ قبيلةٍ في البيرو
قبلَ ثلاثةِ آلافِ عامٍ
دخلتْ غرفتي، لثلاثِ لحظاتٍ فقط
لكنها لم تخرجْ. . .
سأبحثُ عنها حينَ تمرقُ المذَنّباتُ
عندَ الوسادة.

البحارُ التي نعبرُها
لن تكونَ بحاراً بَعدُ
والأرضونَ التي ركزنا عليها الرماحَ
لن تُنبتَ وردةً. . .
هكذا نختصمُ والعالَمَ
كأننا في التشوّشِ الأول.

عشرةُ آلافِ متشردٍ
يلوذون بمُلاءتي الصوفِ ـ
أنا النائمِ على الرصيف.
هكذا سأظلُّ على الرصيف
حتى لو ابتنيتُ لي خيمةً من أدَمٍ
في سهوب «حُلم آباد».

لا تقولي: نحن اثنان. . .
ـ نحن الواحدُ المتشظّي
قدرَ ما تحتملُ الشهبُ
قدرَ ما لا نحتملُ. . . طبعاً.

كولومبيا (ميداايين)، ٩/٦/ ٢٠٠١

من قتلَ فرهاد عثمانوف؟

Who killed Ferhad Usmanov?

www.war-against-terrorism.info

عند محطّةْ
عند محطةِ مترو
عند محطةِ مترو آكْتِنْ تاوْن
أعني: Acton Town Tube Station
تحديداً . . .
أقرأُ: Who killed Ferhad Usmanov?
أنا لم أسمعْ باسمكَ يا فرهاد
لم أسمعْ، من قبلُ، بفرهاد عثمان
(عثمانوف!)
لكني أسمعُ في الليلِ الليلِ، دويَّ الغاراتِ
بقاراتٍ تتراءى مائجةً في لُججٍ وأعاصيرَ وأدخنةٍ
أسمعُ زخّاتِ رصاصٍ

والصوتَ السرِّيَّ لإطلاقةِ كاتمِ صوتٍ
أسمعُ أبواباً تُخلَع في أحياء الغرباءِ

وأسمعُ أحياناً صرخةَ طفلٍ. . .
. . . .
. . . .
. . . .
أنا لا أعرفُ كيف أُناديكَ،
وأيَّ رياحٍ سأُحمِّلُها صوتي كي تصلَ الرعشةُ. . .
هذا الليلُ طويلٌ، يا فرهاد
سأظلُّ، إذاً، أبحثُ عنكَ. . .

ومَن يدري. . .، قد نبلغُ، في مَسرانا، بغداد
أقولُ: القارةُ، أمستْ، في هذا الليلِ، القريةَ
نعرفُها درباً درباً

نعرفُ فيها الساكنَ والمسكنَ
والمنبعَ والأشجار
ونعرفُ أيَّ فتاةٍ ترقصُ
أو أيَّ فتىً يرتجلُ الأشعار. . .
لكني، مثلك، يا فرهاد

لا أعرفُ من أين تجيء رصاصاتُ السُّمِ
ومن أيّ كهوفٍ قبل التاريخِ يجيء الإنسانُ ـ الذئبُ
ويندفعُ الإعصار. . .

. . . .

. . . .

. . . .

فلْترقُدْ يا فرهاد
ارقُدْ
واتركْني في وحشةِ هذا المسعى
في وحشةِ هذي الأشعارْ

لندن، ٢٦/٦/٢٠٠٢

ارتياب

ثَمَّ، بين الغصونِ، سماءٌ طباشيرُ
هل أكتبُ اليومَ فيها أغاني السوادِ؟
المروجُ التي تكنزُ الخُضرةَ اتّسعتْ:
هل تكونُ السماءُ، إذاً، في الترابِ الخفيضِ؟
لأحداقِنا أن تحارَ قليلاً
وأن تسألَ الآنَ عمّا بدا ثابتاً. . .
نحن لن نتثبّتَ من صورةٍ،
فالمرايا حوائطُ
واللونُ محضُ اشتباهْ
. . . .
. . . .
. . . .
لا تقُلْ: ما أدقَّ الحياهْ!

لندن، ٢٧/ ٦/ ٢٠٠٢

صباحٌ ما

قد تُتمتمُ: تَمّتْ تمارينُ هذا الصباحِ...
احتسيتَ، بلا سُكّرٍ، قهوةً
واستمعتَ إلى نشرةٍ
ولففتَ السيجارةَ معتنياً، ثمّ دخّنتَها
هكذا، في دقائقَ، وانفلتَ اليومُ...
في الحوضِ لم تكنِ الحنفيّةُ مغلقةً جيِّداً
كنتَ تسمعُ من غرفة النومِ أرواحَها تقطُرُ...
الشمسُ لن تُجتلى
أمسِ كان المطرْ
وغداً لن يكونَ السفرْ
....
....
....
غنِّ، إنْ شئتَ
غنِّ:
السبيلُ إلى بيتها اسمُهُ المستحيلُ.

لندن، ٢٩/٦/٢٠٠٢

حوار

قال لي آنَ كانت رياحُ الخريف
تتناوحُ بين التلالِ المحيطةِ:
هل نحن، يا صاحبي، صخرتان؟
كم تناوحتِ الريحُ
كم نابَنا القَرُّ
والضُّرُّ
كم ضاعَ منّا الرهان...
ولكننا، ههنا، الواقفان.
....
....
....
قلتُ: لا تبتئسْ
نحن عينُ الزمان...

لندن، ٢٧/ ٦/ ٢٠٠٢

مُسَوّدةٌ أُولى

سوف أمضي إلى المغربِ:
انفتحتْ بابُ «سبتةَ». . .
لو أمهلَتْني قليلاً لخيّمتُ خارجَ سورِ المدينةِ
وابتعتُ كوزاً
وصحناً
وأعلَيتُ من بُرنسي منزلاً
وأقمتُ الصلاة.
. . . .
. . . .
. . . .
غير أني دخلتُ، فلم يكترثْ حجرٌ لي
ولم تلتفتْ، في الغصونِ، المُطوَّقةُ
الآنَ أمضي إلى منزلٍ بالضواحي
إلى منزلٍ بالضواحي القصيّةِ،
فلْتتركيني وحيداً
مع الكوزِ

والصحنِ
والبرنسِ الصوفِ:
إنّ سبيلي الفلاةْ. . .

لندن، ٢٧/ ٦/ ٢٠٠٢

الشّايُ في الشرفةِ

يشربُ النبتُ في شُرفة البيتِ شاياً من الياسمينِ
الصباحُ تَدلّى بسُلَّمهِ
وتسلَّقَ أوراقَهُ
وهو الآنَ يضْفرُ لي تاجَهُ في الجبينِ
الطريقُ الذي لا يؤَدِّي، يُلَوِّحُ لي إذْ يَلُوح
لن تَمُرَّ هنا الحافلاتُ
اتَّئِدْ
واشربِ الشايَ في شُرفةِ البيتِ
ولتتعلَّمْ، ولو مَرّةً، كيف تستقبلُ الطيرَ
كيف تصُدُّ الحنين. . .

لندن، ٣٠/ ٦/ ٢٠٠٢

القهوة تبرد في الشُّرفة

الفانوسُ المتدلِّي بين النبتِ المتسلِّقِ لا يُرسلُ نوراً
لكنَّ عيوناً كانت تمنحُه نورَ الشرفةِ. . .
كرسيّانِ وطاولةٌ (الكلُّ بلاستيك)
وصينيّةُ قهوةْ.
لم تَغِبِ الشمسُ تماماً:
والسُّرخُسُ ما زالَ على الدوحةِ أخضرَ
سنجابٌ يقفزُ من أعلى ليغيبَ تماماً في الخُضرةِ
آخرُ بيتٍ تبلغُه عينايَ سيوقدُ مصباحَ حديقتهِ بعد قليلٍ،
والقهوةُ تبردُ في الشرفةِ
ثمَّتَ أنفاسُ ربيعٍ تحتَ الطاولةِ. . .
الشرفةُ تبردُ في بُطءٍ.
. . . .
. . . .
. . . .
لا تُحصي، أيتها المرأةُ، أنفاسَكِ
لا تَتَّخذي الفانوسَ رداءً. . .
هل ألمُسُ كفَّكِ؟

لندن، ٢٥/ ٤/ ٢٠٠٢

شُرفة فؤاد الطائي (رسّام)

قد تظلُّ الحوانيتُ مفتوحةً، متألِّقةَ النورِ
حتى وإنْ هبطَ الثلجُ. . .
قد تترصَّدُ قُربَ محطّتِكَ القرويةِ كيف يجيءُ القطارُ
وكيف يُغادرُ. . .
قد تتتبّعُ ماءَ البحيرةِ، تلكَ القريبةِ
حتى القرارِ الذي هو مأوى العرائسِ. . .
قد تتفتّحُ شُرفةُ هذا الشَّمالِ السويديِّ
عن أنجُمٍ أو أيائلَ. . .
(في الصيفِ نحنُ)
ولكنّ عينيكَ ـ حتى وإنْ كنتَ في اللحظةِ/ الصيفِ ـ
سوف تَرودانِ سَطحاً
وقِشرةَ بطِّيخةٍ
وخِيارةَ ماءٍ
ومِلْحاً. . .
. . . .
. . . .
. . . .

آنَها سوف يَغمرُ لونُ الذّهبْ
كلَّ أوراقِنا
من نخيلِ السَّماوةِ
حتى حَلَبْ!

لندن، ٣٠/ ٦/ ٢٠٠٢

شُرفة المنزلِ الفقير

الطِّلاءْ
كان يَنزعُ في السقفِ أثوابَه البِيضَ
في دَعةٍ وهدوءٍ
ويُلقي بها كالنقودِ العتيقةْ
مرةً في أصيصِ الزهورِ
وأخرى على رأسِ مَن يتأمّلُ في الشّرفةِ. . .
الصبحُ رطْبٌ
وهذا الطلاءُ الذي ظلَّ يَسَّاقَطُ
امتدَّ حتى الحديقةِ في أسفلِ المنزلِ
امتدَّ حتى حذاءِ الذي يتأمّلُ في الشّرفةِ. . .
امتدَّ حتى الهواءِ الذي يتنفّسُهُ،
. . . .
. . . .
. . . .
سوف ينفضُ عن ثوبهِ ما تَساقَطَ
ينفضُ عن رأسهِ ما تَساقطَ. . .

أو ربّما امتدّتِ اليدُ حتى الحذاءِ؛
ولكنّ أغنيةَ الصبحِ
أغنيةَ العُمرِ
مُثقلةٌ بِنَثيرِ الطِّلاء.

لندن، ٢/ ٧/ ٢٠٠٢

قلعةُ ألْسِينور (قلعة هامْلِت)

الخندقُ ذو الماءِ الأخضرِ تعْبُرُه أغصانٌ وعصافيرُ
وتَعبُرُهُ أحذيةُ السوّاحِ
وأشباحُ البحّارةِ في سُفُنٍ غرقتْ. . .
أنا أعبرُهُ أيضاً،
لكني أتَحسّسُ ألواحَ الجسرِ
أُحِسُّ بها ليِّنةً
ومُباغِتةً
ماءً في لونِ الخشبِ. . .
القلعةُ تسكنُ في القلْعةِ
كالدَّمِ في الدَّمِ،
أنتَ، اللحظةَ، لن تتقرّى ألواحاً أو حَجَراً
لن تدخلَ من بابِ التاريخِ
ولن تأنسَ باللوحاتِ المعروضةِ في البهوِ
ولن تسمعَ وشوشةَ البحرِ
الآنَ ستدخلُ في نفسكَ
كالحَلَزونِ اللاّئذِ بالقوقعةِ. . .

. . . .

. . . .

. . . .

الآنَ، ستهجِسُ وقْعَ خُطىً في ليلٍ ناءٍ
وستُنصِتُ للأنفاسِ المكتومةِ
تُنْصِتُ للدّرَجِ الصاعِدِ نحوَ الأسئلةِ. . .

انتبِهِ الآن!

لندن، ٩/ ٧/ ٢٠٠٢

شُرفةُ هامْلِتْ (١)

«سِجنٌ هي الدانيمارك». . .
مَرْقاكَ الوحيدُ إلى الحياةِ، الموتُ في مَرأى أبيكَ؛
القلعةُ الليليةُ انطبَقتْ
أقوقعةُ القيامةِ تلكَ؟
أطبقتِ الظلالُ على السّلالمِ. . .
سوف يقول هوراشيو:
تَمَهَّلْ، يا أميرُ!
الليلُ أعمقُ من مَخاوفِنا،
وأخطرُ من معاركِ أمسِ. . .
أنتَ عرفتَ ما لا يعرفُ القدماءُ والبحّارةُ الحُكَماءُ
أنتَ عركْتَ نفسكَ
واستعذْتَ بها
ولكنّ الدّجى أبَدٌ. . .
ويقول مارسيليوس مرتبكاً:
تَمَهّلْ يا أميرُ. . .
ألمْ تَقُلْ: سِجنٌ هي الدانيمارك؟

ماذا سوف تلْقَى من مُتابعةِ الصّعود؟
ومَن، تُرى، تَلقى؟
أباكَ؟
لقد رأيناهُ،
وكانَ مُسَلَّحاً. . .

*

الليلُ منتصِفٌ
وهذي القلعةُ البحريّةُ ارتطَمَتْ بشاطئها
وهامْلِتُ
يصعدُ المَرْقَى. . .

لندن، ٣/ ٧/ ٢٠٠٢

شُرفة هامْلِتْ (٢)

هنا، كان رُوزِنْكْرانْتس واقفاً:
لم تكنْ شُرفةً (مثلَ ما أَلِفَ الناسُ، أو مثلَ ما جاءَ في الكتُبِ):
البحرُ هاويةٌ
وهيَ كانتْ مَطَلاً على الهاويةْ
لكنّ روزنكرانتس يراها كما قد يرى البرزخَ
(النقطةَ الصِّفْرَ بين الحياةِ وأُقْنُومَةِ الزاويةْ)
كان روزنكرانتس يراقبُ ما يقذفُ البحرُ
ما يتكسَّرُ من سُنَنٍ أو سفائنَ
يَرقَبُ بَحّارةً
وقَباطِنَةً
ينزلونَ هنا
يرحلون، مع الفجرِ، أو في ليالي العواصفِ عاتيةً، من هنا.
آهٍ روزنكرانتس!
أنتَ تصنعُ، من كلِّ ما قد ترى فيهِ أسئلةً، مسْرحاً
(ولْيَكُنْ مثلَ ما شئتَ أن يتبدّى، بسيطاً)
غيرَ أنكَ ممتحَنٌ، يا صديقيَ، هذا الصَّباحَ:

سفينةُ هاملت ألقتْ مَراسيَها

الآنَ. . .

والمسرحيّةُ لم تبتدئْ، بَعدُ

. . . .

. . . .

. . . .

المسرحيةُ لم تبتدئْ، بعدُ

فَلْتَكشِفِ السِّرَّ، روزنكرانتس:

أتكونُ انتهتْ؟

لندن، ٣/ ٧/ ٢٠٠٢

شُرفةُ هامْلِتْ (٣)

أنا الآنَ في المَرْقَبِ:
الريحُ تدخلُ في البحرِ
والبحرُ يدخلُ في الريحِ،
مِلْحٌ هو الأُفْقُ
حتى السفائنُ، في المرفأِ الجَهْمِ، تبدو مُشوَّشةً؛
والصَّباحُ الذي أرتَجي
ليس في الدانيماركِ. . .
المساءُ سيأتي
وفي مهبِطِ الليلِ، ينعبُ، أوحشَ من خندقِ القلعةِ، البُومُ
والليلةَ: الحفلةُ الملكيّةُ. . .
. . . .
. . . .
. . . .
فَلأحتَفِلْ:
أنْ تكونَكَ أو لا تكونْ
آنَها سَيجيءُ الجنونْ.

لندن، ٤/ ٧/ ٢٠٠٢

العَقَبة

(١)

هي أَيْلَةُ التاريخِ
وهي الآنَ إيلاتُ التي جاءت بها الكبَواتُ واللهجاتُ
وهي، بنُطقِنا، وغماغمِ استقتالِنا:
العَقَبةْ
تشِفُّ كذرّةِ البلّورِ أحيانَ اضطرابِ النبضِ
أرضَ مَقاتلٍ لصحابةٍ ومُجاهدينَ
وواحةً مسكينةً للسِّدْرِ
درباً نحوَ مؤتةَ والشّآمِ
ونحوَ أن تنداحَ موجةُ ذلك الرملِ المؤجَّجِ
ذروةً
أو وردةً من وقدةِ الصحراءِ
تندفعانِ أعلى ثم أعلى
في الهباءِ تدوِّمانِ لترفعا مُدناً
وألويةً
وعشراً من قلاعٍ

حيثُ تستهدي كراديسٌ مدجَّجةٌ
نجومَ النَّقْعِ والصلواتِ
. . . .
. . . .
. . . .
سوف يئنُّ لورنسُ المهشَّمُ عند إحداها.

*

ليس في القلعةِ أحدٌ/ ليس ثَمّتَ حارثُ آثار/ البحر وحدَه/ والصيادون تركوا زوارقَهم إلى المقهى/
الشمسُ تغربُ في إيلات/ والقلعةُ العثمانيةُ تسهرُ مرتديةً أسمالَها الفاخرة/ لا قذائفَ من مدافع قديمة/
لا آثارَ رصاصٍ/ الأسوارُ الخفيضةُ تنهدمُ باستمرار/ وقريباً سوف يعلو السورُ المرمّمُ صقيلَ الحَجر/
المِئذنةُ صُبّتْ كاملةً بالإسمنت/ والمهندسُ لم يحفظْ حتى لآجُرّةٍ واحدةٍ حقَّها في هواءِ
التاريخِ والبحرِ/ سوف تكونُ المنارةُ أنيقةً في كامراتِ السوّاح الذين لا يأتون/ الهلالُ الجديدُ
ليس من الإسمنت/ إنه من نحاسٍ سريعِ الصدأ برطوبةِ الشاطئ/
القلاعُ لا تُولَد مرّتين. . .
لنهبطْ، إذاً، إلى القاع.
الفرسانُ المسيحيون، ثبّتوا خطوتَهم الأولى إلى ما لن يبلغوه إلى الأبد: مكّةَ وشِعابِها.

المغِيرون المسلون ثَبّتوا في هذه القلعةِ الملتبسةِ، خطوتَهم الأولى إلى ما لن يتركوه أبداً:
بلادِ الشام وأشجارِها.
الضبّاطُ العثمانيون كان لهم هنا مفصلُ البحرِ والصّحراءِ،
والمدافعُ الأولى التي تدفعُ عن طريقِ مكةَ الطويلِ، ما قد يقذفُ به البحرُ.
المشهدُ واضحٌ. واضحٌ كالسينما الوثائقية، وجارحٌ،
إذاً، لنهبطْ إلى القاع...
لنضعِ الأقنعةَ والزعانفَ
وحزامَ الرصاص
لنحملْ، مثل جَمَلينِ، غذاءَ رئتَينا
ولْننقذفْ في الأمواه العميقةِ
حيثُ الزُّرقةُ ساحلٌ.
منظر
نِصفُ تفّاحةٍ يختفي هادئاً في الجبال
تاركاً في الخليج عموداً من النورِ
لا موجَ في البحرِ
لكنّ كلَّ السماءِ المحيطةِ بي
تنشرُ الآنَ قمصانَها الأُرجوان
نِصفُ تفّاحتي غابَ
لكنني مثل خيّاطةِ الحيّ

ما زلتُ أطوي على ساعِدَيَّ السماء
وقمصانَها الأُرجوان

(٢)

لا بحرَ بين هواءِ مصرَ وبحرِها
لا بحرَ بين هواءِ جَدّةَ في الجنوبِ وبحرِها
إنّا تَوحّدنا ببازِلتِ البراكينِ
التي اندفعتْ لتفصلَ قارتينِ
فوحّدَتنا
ثم دارتْ في مفاصلنا، لننساها
. . . .
. . . .
. . . .
ستُحْكِمُ شوكةُ الصحراء وخْزتَها
لتبتعدَ البراكينُ
التي بَرأتْ من البازلتِ آلهةً
وماءً دافقاً
ومرارةً فيها تلوبُ الروحُ . . .
تُحْكمُ شوكةُ الصحراءِ وَخْزتَها
وتدفعُ سُمّها فينا
فننسى كلَّ ما في الكون

كلَّ علامةٍ في الكونِ
إلاّها. . .
دهب/ شرم الشيخ/ نويبع/ الغردقة/ الدرّة/ عيذاب/ الأسماءُ تتخاطفُ مثل أسماكِ البحرِ الأحمر/
تتخاطفُ حتى تبلغ هَرر ومُكلأ حضرموت/ تتخاطف حتى تتمادى. . . إلى صَحار ومضيقِ هُرمز
وبلادِ التاميل/ تتخاطف حتى لَتتركنا مدوَّخين/ أسماءُ وكواسجُ ودلافين/ وحوريّاتُ بحّارةٍ ثملينَ
بالخطرِ والعواصفِ/ سيأتي حجيجُ مصرَ/ ومن هنا ستحملُ الجِمالُ المُرَقّلةُ كسوةَ الكعبةِ
التي كانت تُنسَج بأناةٍ غيرِ مصريّةٍ في متاهة القاهرةِ المُعِزِّيّة/ «نحن مليئون بالسُّمّ»
يقول رامبو الفتى/ مليئون بتاريخ الأسَلِ والسيوفِ/ وهذه الجبالُ التي تُرهقُ أكتافَنا منذ ملايين
السنين/ هذه الجبالُ السودُ/ الجبالُ الوردُ/ الجبالُ الرملُ/ الجبال الجبالُ/ من العقبةِ إلى عدن/
أيّانَ تهبطُ عليها، كما في المطر، قطرةُ ماءٍ؟/ ما نحن بسكارى/ نحن مدوَّخون بتاريخٍ لن يقرأه
أبناؤنا/ مدَوّخون ببحرٍ هو جحيمُ البحّارةِ منذ قرونٍ/ سِكّةُ الحديدِ اقتلعَها البدو المُسيَّسون
كما يقتلعون ضرساً مسوّساً/ والجِمالُ اشتراها متعهدو العساكرِ/ نحن لا نركبُ البحرَ/

ماذا نفعل، إذاً؟
ماذا تفعلين، أيتها البدويةُ، بجَمالِكِ؟ بالخِمارِ المُقَصَّبِ ومِشيةِ الهُوَينى؟
وشفتاكِ المُسوَدّتان المحمَّرتانِ من لِحاء الجوزِ؟
وثيابكِ المُضَوَّعة ليلاً كاملاً بالبخور؟
أنّى أذهبُ بكِ؟
وأيّانَ الساعةُ التي سيدقُّ فيها قلبانا مثلَ مهراسِ البُنّ؟
سأرسُمُكِ أيتها البدويةُ «المزركشةُ كشجرة الميلاد». . .
سأرسمكِ ماثلةً على ناقةٍ أو كثيب،
سأرسمُ صورتَكِ الفريدةَ ألفَ مرةٍ. . .
لأبيعها إلى سوّاحٍ موهومين.
منظر
الفنارُ القديمْ
مُطفأٌ
لم يَعُدْ في صخورِ المواضعِ بحّارةٌ
وحدَه الموجُ
يلمسُ، كالقطِّ، كُرسيَّ مقهى.
دخانٌ من الضفةِ الثانيةْ
والسفينةُ تُقْلِـعُ.
من زورقٍ يتخطّى الفنارَ القديمَ
شِباكٌ تدلّتْ. . .

(٣)

سنُوقِرُ سمعَنا عمّا يقول البحرُ
سوف نُشيحُ عن شمس الغروبِ
وملعبِ الأمواجِ. . .
سوف نكون أتباعاً لهذا أو لهذا
نكتفي من كل قافلةٍ
بخبزةِ مَلّةٍ
وبتمرتينِ. . .
وسوف ننسى كيف نرسمُ بالنجوم فُجاءةَ الصحراءِ
والطرقِ التي لا تنتهي. . .
لا بحرَ يغسل منتهى أحلامنا بالملح والمرجان والأسماكِ
لا صحراء تُنبتُ وردةَ المجهول. . .
صرنا بين مُصطَفِقَينِ ينطبقانِ
باعاً بعد باعٍ،
كيف نُفلتُ؟
كيف نُبعِدُ أن تَعُدَّ عِضادتانِ
دقائقَ الرملِ الذي سيكون مَثوانا الأخيرَ
وعُشّةَ العششِ؟
. . . .
. . . .
. . . .

اختفى المرجانُ
واندفعتْ سراطينُ الشواطئ نحو مأواها.

❋

لا جملَ لدينا ولا سفينة/ لا خيمةَ ولا منزل/ لكن لنا أن نسأل عن المأوى/
والعقبةُ خاويةٌ على عروشها/ العشيرةُ أمستْ شيخاً/ والشيخُ في الحاضرةِ
البعيدةِ/ كلُّ شيء مؤجَّلٌ مثل ديون الجنود/ العقبة مؤجلة/ الحروب في الكتب/
والسلامُ في الدفاتر/ ونحن: لا رَكْبٌ ولا بَحّارةٌ/ نحن في هذه العقبة حسبُ/
علينا، إذاً، أن نختلقَ المأوى/ ليكنْ لِبناً وصفيحاً/ ليكن ألواحاً ممّا ألقت السفنُ/ ليكنْ حبالاً وأنسجةً مموّهةً/ ليكن العراء...
هكذا بنينا، نحن اليتامى، العقبةَ الفقيرةَ، مأوىً ذا دروبٍ متربةٍ ودكاكينِ فولٍ
وفلافل/ لنا أيضاً مقاهينا/ حيث الشاي ذو القروش العشرة/ وورقُ اللعبِ المهترئ/
سائقو الشاحنات والمهرِّبون بين مرافئ البحر الأحمر يسكنون أفئدتَنا وحجراتِنا العارية/ أين سنذهبُ هذا المساء؟ بار روميرو مفتوحٌ عند البحر/
حانة إلكازار أيضاً/ وناصية علي بابا/ ثمّتَ مشاربُ سريّةٌ وفتياتٌ ـ إنْ شئتَ ـ/ أنت تفضِّل الشاي بالنعناع/ نادي الغوص الملكيّ

(سوف يباع) أغلقَ بوّابتَه في الرابعة/ لماذا تنظرُ إليّ بالنظر الشّزرِ؟/ أتقول إني لا أعرف كيف أقودك؟/ فلْنذهبْ إلى إيلات. . .
الصباحُ في العقبة باكرٌ دائماً/ ثمّت طراوةٌ وشجرٌ مبتلٌّ برطوبة الليل/ والتلاميذُ في الشارع الضيّق/ يحملون أرغفةً ساخنةً فيها حبّاتُ فلافل/ المَسْمكةُ تُعلِّقُ (مثل الخراف) أسماكَ التونة/ والحلاّقون ينفضون عن كراسيّهم ما تبَقّى من شَعر البارحة/ فلاّحو العقبة (مصريون) جاؤوا إلى السوق بالفجل الأحمر والنعناع والكزبرة/ شارعُ الحمّامات لم تُفتَحْ مقاهيه بَعدُ.

الحيُّ القديم يضجّ الآنَ في حُمّى الهاجرة.
السلامُ عليك يا بن عبد اللّه. .

منظر
الجبالُ رماديّةٌ
غير أنّ الرماديَّ ينكشفُ الآنَ
أبيضَ/ أزرقَ مثلَ الضّباب. . .
النُّخَيلاتُ مزرقّةٌ هي أيضاً
وفي البُعدِ
في أوّلِ الكونِ
يبدو السحاب. . .

العقبة ـ عمّان، ١٢-١٦/ ١/ ٢٠٠١

رأيتُ أبي

كنتُ أمشي، وأبي، في غابةِ النخلِ
وأحسستُ أبي يرفعُني بين ذراعَيهِ:
لقد كنتُ خفيفاً
ريشةً...
وأبي كان خفيفاً
غيمةً كانَ
وفي القطنِ الذي يفترشُ الغيمةَ
أغمضتُ (كما في الحلمِ) عينيّ...
أبي!

لندن، ٢/٧/٢٠٠٢

إحساسٌ مضطربٌ

أمسِ،
قلتُ: انتهتْ سنواتُ العذابْ
أنا ظَهري إلى حائطٍ
والقبورُ أمامي بغَربيِّ لندنَ
والفجرُ، دوماً، ضَبابْ.
. . . .
. . . .
. . . .
أمسِ، قلتُ. . .
ولكنّ تلكَ الصنوبرةَ المستقيمةَ في البُعدِ، لم تَتَّرِكْ لي، ولو لحظةً، شاطئاً للتأمُّلِ. تلكَ الصنوبرةُ استقدمتْ، منذُ يومينِ، كِيزانَها وثعالبَها والسّناجيبَ والطيرَ،
واستقدمتْ غيمةً تستقرُّ على جبهتي، ثم نَسراً بأجنحةٍ من هُلامِ،
ومَدّتْ على مَدخلِ البيتِ أغصانَها
وهي مضفورةٌ كالشِّباكِ الخرابْ.

انتظرتُ . . .

الصباحُ انقضى. واستراحتْ على الشُّرُفاتِ الظهيرةُ.
قَلَّتْ على الشارعِ الحافلاتُ. ولم يبقَ إلا المساءُ.
اقتنعتُ بأني سجينٌ، وأنيَ لا أكرهُ السجنَ
(فالمرءُ يألَفُ) قالَ لنا المتنبِّئ. في بغتةٍ ألمحُ الشيبَ يَنبتُ في راحتَيَّ. الكلامُ العجيبُ، إذاً، قد تَحقَّقَ.
ها أنذا ألمحُ الشيبَ، فعلاً، على راحَتَيَّ، بلونِ الترابْ.

انتظرتُ . . .

الصنوبرةُ استجمعتْ، كالرياضيِّ، أنفاسَها. والصنوبرةُ اندفعتْ بثعالبِها والسناجيبِ والغيمِ والطيرِ والنَّسرِ. . . والـ. . . والـ. . . .
وراحتْ تدقُّ على البابِ مجنونةً، تتقاذَفُ كيزانُها؛

والفروعُ على جبهتي إبَرٌ واضطرابْ.

أنا ظَهري إلى حائطٍ. . .
والقبورُ أمامي بغربيِّ لندنَ
والفجرُ، دوماً، ضبابْ.

لندن، ١٧/ ٤/ ٢٠٠٢

أميرٌ هاشميٌّ منفيٌّ في لندن

كلَّ صباحٍ أفتحُ عينيَّ على الغيمِ
الممطرِ دوماً
والأبيضِ أحياناً.
أنا لا أتصوّرُ ما قالوا لي عن شمسٍ ثابتةٍ
فوقَ حِجازٍ. . .
قالوا أيضاً إنّ بلادي تلكَ،
وإني سأُتَوَّجُ فيها ملكاً يوماً ما. . .
أنا لا أرغبُ في أن أُمسي ملكاً.
لكنّ الأجدادَ يُطلّون عليّ من الجدران
ومن غرفةِ مكتبتي
ينتظرونَ،
وقد سكنوا أُطُراً ذهباً، ودفاترَ يوميّاتٍ
وفصولاً من كتبٍ لن أقرأها. . .
لُغتي اختلفتْ
وثيابي
حتى عيناي هما زرقاوانِ،

إذاً، لن أمضي معهم:
يوماً في بغدادَ
ويوماً في مكّةَ
يوماً في الشّامِ
وآخرَ في قصرٍ مَلكيٍّ بالعقَبةْ

. . . .

لكني أسمعُ عن أنّ ملوكاً عادوا
عن أزهارٍ تستقبلُهم بمطاراتٍ غامضةٍ

. . . .

ما شأني؟
ما معنى أن أُمسي ملكاً؟

. . . .

. . . .

. . . .

سأُتابعُ منذُ اليوم، دروسَ الموسيقى
وأطلبُ من أستاذِ الرسمِ مُرافَقتي
عبرَ متاحفِ روما
هذا الصيف. . .

لندن، ٢٠٠١/٩/١٢

تقليبُ أوراق

بِير حَسَن

كنا في وسَط الحيّ
ولم يكنِ الطيرانُ الإسرائيليّ خفيضاً
أنت تظنُّ مُضادّاتِ «الآك آك» الأُضحوكةَ؟
كنا بمدافعنا تلك نعرقلُهم. . .
أنا لا أتحدثُ عن غيرِ الذكرى (أرجوكَ!)
ولكنّ السمتيّاتِ الإسرائيليةَ ما كانت لتطاردنا
فرداً فرداً. . .
كنا بمدافعنا تلك نذودُ عن الموقعِ
والمستودعِ
عن سكّانِ الحيّ
وعن شبّانٍ لبنانيينَ سيأتون إلى موقعنا.

حَيُّ السُّلّم

كنّا في حيّ السلّمِ في ٨٢ ـ
تماماً في مثل معادلةِ اليوم. . .
الإسرائيليون هناكَ

ونحن هنا. . .
تفصلُنا عنهم تلك الفُسحةُ
حيثُ الدبّابةُ، دبابتُهم، مَعطوبةْ.

مبنى أبو إياد

لا أعرفُ مَن سمّى المبنى باسمِ صلاح خلَف
ولماذا. . .
هو ما كان ليسكنَهُ
ما كان ليدخلَهُ إلا يوماً في العامِ
وكان المبنى معروفاً في الشارعِ
كان المبنى مكشوفاً للشارعِ
للناس
لسيارات الخدمة في «الفاكهاني»
ولطلابِ الجامعةِ،
المبنى مفتوحٌ
. . . .
. . . .
. . . .
في الغارات الأولى دخلَ المبنى في الشارع
مالَ من القصفِ
فأسنده الشارع.

لندن، ١٦/ ١١/ ٢٠٠٠

اعتصامٌ في دوانِنغ ستريت

كان مساءُ التاسع والعشرين
من تشرين الثاني هذا، طلْقاً وجميلاً
لا أمطارَ
ولا ريحَ،
وكنّا، من أجل فلسطين، نحاولُ. . .
لم يأتِ التجّارُ ذوو الصفقاتِ السرِّيّةِ
لم يأتِ فلسطينيّو أنظمةِ القتلِ العربيةِ
أو أهلُ الرفضِ
ولم يأتِ حُماةُ العِرضِ
. . . .
. . . .
. . . .
لقد كنا بضعةَ أنفارٍ في الشارعِ
بضعَ شموعٍ
خمسةَ طلاَّبٍ ضاقوا، بعد قليلٍ، بالعَلَمِ الضخمِ
وخمسَ صبايا يتأففنَ،
وعشرينَ بريطانيّاً ألهمهم ربِّي صبراً
وأنا العربيّ المفرَد؛
. . . .
. . . .
. . . .

لو كان لنا أن نعتصمَ الليلةَ
في مكّةَ؛
لو كان لنا. . .

لندن، ٣٠/ ١١/ ٢٠٠٠

الطّوافُ بالمقاهي الثلاثة

(١)

يا أنتَ، العابرَ كلَّ دوائرِ هذي العتْمةِ، دائرةً دائرةً،
لتُطوِّقَ عنقي كالأُنشوطةِ، من مسَدٍ وحريرٍ حيناً
من فخّارٍ وتهاويلِ جداريّاتٍ حيناً، من أهدابٍ خِيطتْ أحياناً،
يا أرضاً كانت ماءً، يا ماءً كان الأرضَ. هنا ترتفعُ الصلواتُ نشيداً باسمكَ، أو تنفرعُ الفلَواتُ... أُحَيِّيك، وأحْييكَ، وأسألكَ الغفرانَ اليومَ، وأسألُكَ النسيانَ غداً. ستمُرُّ الدبّاباتُ على ساقَيكَ مُجلجِلةً في كتمانٍ من سُرُفاتٍ طينٍ، وسيمتدُّ رقيمٌ (تشويهِ شموسٌ ثابتةٌ) من رمل الفاو وأوراقِ الحنّاءِ إلى الصخرِ المقدودِ ربايا وطرائدَ من آشورَ. أنا أسألُكَ المغفرةَ، الهدأةَ، شكّلتَ جبيني بالوسمِ، وعلّقتَ ذراعي اليسرى بالكُلاّبِ، وقُلتَ: أُحَمِّلُكَ الآنَ دمي.
ما كنتَ صغيراً لتكونَ كبيراً. أنت الاسمُ الأولُ والمَوئلُ.
أنتَ عدُوِّي مُذ كنتَ، صديقي مذ كنتُ... ستأتي أسرابُ الطيرانِ الحربيّ مجلجلةً تحتَ سماءٍ من صَهَدٍ...
سيكونُ هواؤكَ محتقناً بالبارودِ ومختنقاً، لكنكَ تبحثُ عني، أنا، إسمِكَ، كي تقتلني. الدبّاباتُ تُبددُ جِلدَكَ، والطيرانُ الحربيُّ يمزِّقُ

أهدابَكَ، لكنكَ ملدوغاً تتبعُني كي تسلخَ أجفاني؛ وتُمزِّقُ أضلاعي كي تأكلَ قلبي. لستَ الآنَ الطيرَ المرموقَ عصائبَ... لستَ النسرَ القادمَ من حِمْيَرَ، لستَ الهُدهدَ، لستَ حمامةَ نوحٍ، لستَ الرخَّ... فمن أينَ أتاكَ اللونُ الميِّتُ هذا؟ من أين أتتكَ القَصْباءُ لتبريها صعدةَ رمحٍ؟ أنتَ هنا اللحظةُ. تَغفَلُ عمّا ترسُمُه سُرُفاتُ الدباباتِ، وتَغفلُ عمّا يمحوهُ الطيرانُ الحربيُّ، ولا تَغفَلُ عني... فَلْتَهدأْ، أرجوكَ! اهدأْ، واتركني أتمرّغْ في غُصصِ الأحلامِ، اتركْني أتمرّقْ قصصَ الأعوامِ... أنا ابنُكَ، صِنُوكَ،

حاملُ أختامِكَ في جيبِ الصدرِ، وعنوانُكَ حين تغيبُ طويلاً.

لا! لا تبتلعِ الدباباتِ كما تبتلعُ الملحَ، ولا تمسحْ بالسَّعفِ الطيرانَ الحربيَّ... وأنصِتْ لي في ضجّةِ هذا الوادي الهامدِ: هل تسمعُ شيئاً؟ هل تهجسُ ما يفعلُهُ النملُ هنا تحتَ جذورِ النخلِ؟ هل الماءُ يسيلُ من الصخرةِ؟ يقطرُ... يقطرُ... يقطرُ...، قلتُ لكَ: اسمعْني! ذاك دمي يتقطَّرُ في الهدأةِ. نبضي هو ما يفعلُهُ النملُ حثيثاً تحتَ جذورِ النخلِ...

اسمعْني!

(٢)

مقهىً على «بابِ الزُّبير»...

تُقابلُ المقهى من الجهةِ اليمينِ، الشُّرفةُ الخشبُ التي جاءت من الهند البعيدةِ. واليسارُ يضمُّ مكتبةً ودكّاناً لبيع الخردواتِ. وأنتَ حين تكونُ في المقهى ستشربُ شايَكَ المألوفَ، ثم تقومُ مبتهجاً،

لتدخلَ غرفة البليارِدِ:
طاولةٌ
وعشبٌ أخضرٌ
وكُراتُ ألوانٍ. . .
ستُلقي نظرةً عجلى، وتمضي نحو زاويةٍ
تراقبُ. . .
أنت لا تستعجلُ الأشياءَ
والناس الذين رأيتَهم في غرفة البليارِدِ لا يستعجلون؛
وسوف يدخلُ آخرون الغرفةَ. . .
الساعاتُ تمضي
والهواءُ الرطْبُ يدخلُ في القميص ويستقرُّ حرارةً منقوعةً في الصدرِ.
أنت تراقبُ:
المتفرجون تكاثروا في غرفةِ البليارِدِ
لكنّ الذين تَقاسَموا كلَّ العِصِيِّ تبادلوا الأدوارَ
ظلوا، وحدَهم، في لعبةِ البليارِدِ، يقتاتونَها
كرةٌ هنا حمراءُ
أخرى بَعدها سوداءُ
واحدةٌ تُلاحقُها العصيُّ، وحيدةٌ بيضاءُ. . .
كان اللاعبون يُداوِلونَ عِصيَّهُم وكُراتِهم
لاهينَ عمّا تفعلُ الأشياءُ

لاهينَ عن متفرجينَ رأوا في لعبةِ البليارد لعبتَهم؛
وإنْ شئتَ الحقيقةَ قال أربعةٌ من الشبّانِ همساً:
غرفةُ البليارد ليستْ ثُكنةً. . .
. . . .
. . . .
. . . .
ما أغربَ المقهى على «باب الزُّبير»!

(٣)

قِعْبٌ من سامرّاءَ. البئرُ، المطويُّ كقنبلةٍ في النسيانِ، يفوحُ قليلاً. هذي جَفَناتي ونذوري. سنبيتُ الليلةَ في الصحنِ. وفي منتصَف الليلِ نُراوغُ ذاكَ القيِّمَ كي نهبطَ إلى البئرِ. الليلُ نحاسٌ. سترِنُّ خُطانا بينَ النجمِ وقلبِ الأرضِ. سنهتفُ: تحيا الحريّةُ! ثُمّ تُدَلِّي حبلاً ونلوذ بهِ حتى نلمسَ قاعَ البئرِ. . .، النسوةُ جئنَ هنا من كلِّ ضواحي بغدادَ، النسوةُ بالأسودِ والوشمِ الفيروزِ وأغنيةِ الموتى، والنسوةُ يدعونكَ يا غائبُ، يا ساكنَ رضوى، يا مُطْعِمَنا عسلاً وفراتاً. سنبيتُ الليلةَ في الصحنِ، فلا تطردْنا من مَلَكوتِكَ، لا تتركْنا لذئابِ البرِّ. يتامى نحنُ، ضعافٌ، وذوو أطفالٍ، فارحمْنا يا ساكنَ رضوى، أغمِضْ عينيكَ الجوهرتينِ، ودعْنا نهبط في البئرِ. ستعرفُ من رائحةِ الحبلِ الجُوتِ منازلَ حَيرتِنا. لسنا سفهاءَ، وأعيُنُنا سُمِلَتْ منذُ قرونٍ في حربٍ ظالمةٍ، عبرَ قُرىً ظالمةٍ. لن

نحلمَ حتى بندى كفَّيكَ. فنحن خرجنا من أجداثٍ كي ندخلَ أجداثاً. لا أكفانَ لنا، لا صلواتٍ. لا آسَ ولا سدرَ ولا كافورَ. مباركةٌ طلْعتُكَ، اسمعْنا يا سبطُ هنا... في قاع البئرِ ستسمعُنا. هل تعلمُ، يا سبطُ، بأنّ قنابلَ B 52، وقذائفَ مدفعنا الهاوتزر، ذرَّتنا في الريح غباراً من لحمٍ وعظامٍ؟ هل تعلمُ، يا سبطُ، بأنّا كنّا جوعى وعُراةً حينَ قُتِلْنا؟ هل تعلمُ يا سبطُ، بأنّا حينَ ظمِئنا أُورِدْنا بنزيناً ثم رُمِينا برصاصٍ يشعلنا؟

تحيا الحريةُ! في «الفاوِ» شربنا الغازاتِ السامّةَ حتى ذابت أعيُنُنا كالشحمةِ في القيظِ، وفي كردستانَ أكلْنا لحمَ الأكرادِ على السيخِ. إذاً، نحن وحوشُ الكونِ، بقايا اللهبِ المتدافعِ من جوفِ التنِّينِ، ضِباعُ الغاباتِ المنسيّةِ في كتبٍ بائدةٍ... هل تسمعُنا يا سِبطُ؟ وهل تأذَنُ للذئبِ بأنْ يغدو حمَلاً في لحظةِ إيمانٍ؟ هل تأخذُ منّا أنفُسَنا؟ إنّا، يا سبطُ، التوّابونَ، وإنّا يا سبطُ، الكذابون. فهل تأخذُ يا ساكنَ رضوى، اليومَ، بأيدينا؟ هل تمنحُنا نفحةَ روضٍ ورضاً؟

كم كان عراقُ الوهمِ جميلاً!

تحيا الحريةُ!

حبلُ الجُوتِ تدلّى.

والأنشوطةُ مُحكَمةٌ.

والبئرُ يساوي نصفَ المترِ...

سلاماً!

(٤)

مقهىً على «شطّ العرب» . . .
قد كنتُ ذوّبتُ المرارةَ في فمي مُتَمطِّقاً بالشاي . . .
كان النهرُ أبيضَ
ثَمَّ أشرعةٌ، ولمحٌ من نوارسَ لا تُطيقُ البحرَ
(رامبو قال . . .)
كان النهرُ أبيضَ
والنخيلُ هو الذي نلقاهُ في اللوحاتِ حسبُ،
أتحسَبُ الدنيا مُضيَّعةً؟
أريدُ الآنَ أن أُحصي الدقائقَ:

تحتَ كالبتوسةٍ جلستْ فتاةٌ فجأةً. في البُعدِ يمْرُقُ زورقاً، والقطةُ السوداءُ تخمشُ جذعَ صفصافٍ تهدَّلَ شَعرُهُ في الماءِ. كان البارُ عبرَ الشارعِ الكورنيشِ أعلنَ نورَه. بحّارةٌ (جاؤوا من النرويجِ؟) يفتتحون ليلتَهم. تهلُّ الهندُ بالسمبوسكِ. السفنُ الثلاثُ لشرقِ إفريقيّةَ ارتعشتْ قليلاً. كانت الأمواجُ تعلو. أين نذهبُ في المساء الماثلِ؟ الشايُ الذي أهملتُهُ ما زال منتظِراً. وعبرَ الضفةِ الأخرى أرى سيارةً. شفتي تُدغدغني. تكون الشمسُ لِصقي. ألمُسُ الكرسيَّ. نورٌ في الهواء يَشيعُ. بعد غدٍ سيحملُني القطارُ إلى محطاتٍ وراءَ النهرِ، موسكو ربّما . . .

. . . .

مقهىً على «شط العرب» . . .

كانت تماثيلُ الجنودِ (وأقرأُ: الضبّاط) تصطفُّ. الوجوهُ قبيحةٌ. وإشارةُ الأيدي إلى إيرانَ أقبحُ. وحدَه، بَدرٌ، تُسَوِّرُهُ مزابلُ يومِه العاديّ...

لن تأتي الحمائمُ كي تحطَّ، ولو لتذرقَ، فوقَ لِمّتِه الخفيفةِ، سوف تأتي الطائراتُ. وسوف تنقضُّ الصواريخُ البعيدةُ بغتةً في هدأةِ الجنديّ.

تلكَ الساعةُ الدقّاقةُ السوداءُ (جاء بها إلينا أرمنيٌّ) سوف تعلو في الهواءِ (كأنها من صُنعِ سلفادور دالي)... لم تَعُدْ في بصرةِ البِصريِّ أروقةٌ، ولم تعدِ القناطرُ (وهي من جذع النخيلِ) صراطَنا نحوَ السماءِ.

الليلُ مُنقَضٌّ... سنسكنُ في مقابرنا. أليس البومُ أجملَ؟

غَنِّنا يا قاطعَ الأوتارِ، غنِّ...

الليلُ مشتعلٌ بنيرانِ القيامةِ، والضفافُ مليئةٌ بمسابحِ الألغامِ، والأسماكُ

صارت تأكلُ اللحمَ المدوِّدَ مثلَنا،

غنِّ، «المقاهي أغلقتْ أبوابَها»...

غنِّ!

(٥)

الليلُ ببغدادَ يجيءُ سريعاً. الليلُ ببغدادَ يُقيمُ طويلاً. منذُ قرونٍ والليلُ ببغدادَ يجيء سريعاً ويقيمُ طويلاً. سيقولُ الحدّادون سئِمْنا العيشَ، صناعتُنا السيفُ، وصنعتُنا الضّعفُ. يقولُ النجّارون سئمنا

العيشَ، صناعتُنا التابوتُ. يقولُ الحَذّاؤون سئمنا العيشَ، صناعتُنا جزماتُ الجيشِ. يقولُ الشعراءُ سئمنا العيشَ، صناعتُنا أصباغُ الوجهِ. يقول أطبّاءُ المستشفى نحن سئمنا العيشَ، صناعتُنا أن نصلمَ آذاناً أو نجدعَ (مثل زمان الحَجّاجِ) أُنوفاً. ويقول الحلاّجُ: تُرى، هل صارَ الحلاّجُ الناسَ جميعاً؟

قمرٌ يتطاولُ. والنجمُ تضاءلَ. أين منائرُ وادي الذهبِ؟ الخيلُ مُطهَّمةٌ، والناسُ سواسيةٌ، والحجرُ الأسودُ في البحرينِ. كأنّ سماءً من قصديرٍ تُطْبِقْ. يا أخبارَ الصحفِ الأولى، يا أشجارَ السبيِ، ويا أرصفةَ النفيِ...

الليلُ ببغدادَ يجيءُ سريعاً. أسرعَ من صاروخٍ قيامتنا، أسرعَ حتى من صاعقةِ الرؤيا. أحياناً نتذكرُ أنّا بشرٌ، أنّ لنا، كالحيوانِ، عيوناً... أنّ لنا أطرافاً تتحركُ أيضاً. نحن بلا أسماءَ... لماذا تُرخينَ ضفائرَكِ الأبنوسَ على زَندي؟ ولماذا يتمشّى زندُكِ هذا العاجُ على شفتيَّ؟ لماذا ترتعشينَ؟ ألِلَذّةِ ترتعشينَ؟ أنا أغمضتُ العينينِ وأعطيتُكِ أجنحتي. سنسافرُ، قولي: سنسافرُ... قولي إن الناسَ يعيشون على القاراتِ القمَريةِ كالناسِ. وقولي إن لديهم أروقةً وحدائقَ... سوف تهدهدني كلماتُكِ حتى الموتِ.

الموجةُ تتلو الموجةَ

كان بدجلةَ بيتُ الساحرةِ. الضفةُ العاليةُ اصطفقتْ بالماءِ الأحمرِ.

سوفَ

نشيِّدُ عاصمةً، ونمدُّ جسوراً.

لكنّ اللوحةَ تهتزُّ...

اللوحةُ وهي على الحائطِ تهتزُّ،
ونسقطُ منها. أنتِ. أنا. نسقطُ منها. ها نحن غريبانِ هنا، ها نحن فقيرانِ
هنا، يُرعدُنا البردُ، وينهشنا الجوعُ، ويهتكنا الجَربُ الضاري مثلَ كلابِ البدوِ،
سلاماً يا أرضَ الثمرِ الأولِ
يا أرضَ الطينِ المعجونِ بآلهةٍ. . .
يا نبعَ الريحانِ
سلاماً. . .

(٦)

مقهىً لـ «سيدوري» على البحرِ:
السفائنُ ألقتِ المرساةَ فجراً، وهي تنتظرُ المساءَ ليلتقي البحّارةُ الحكماءُ تحتَ سقيفةِ المقهى. وسيدوري تهيّءُ منذُ أزمانٍ، موائدَها، وتمشُطُ شَعرَها، وتُحاورُ المرآةَ. . .
في الأفقِ البعيدِ سلالمٌ تَرقى وأبخرةٌ.
ستَنبتُ، بغتةً، صفصافةٌ.
قصبُ السقيفةِ كان مضفوراً ومؤتلقاً.
زِلابيةٌ سقيفةُ ذلك المقهى. . .
وخمرٌ في الجِرارِ
وفي الجفَناتِ ترغو، حُرّةً، جُعةُ الشعيرِ
وفجأةً، نادى المُنادي:

أين سيدوري؟
وعادَ الصوتُ يطفو كالنوارسِ:
أين سيدوري؟
وسيدوري تهيّءُ منذُ أزمانٍ، موائدَها، وتمشطُ شَعرَها،
وتُحاوِرُ المرآةَ. . .
سيدوري، ستُجلِسُ، في المساءِ، الكونَ
سوفَ تكونُ ربّتَهُ
وساقيةً تُجالِسُ أهلَهُ، البحّارةَ الحُكماءَ
سوف تقولُ سيدوري نُبُوءتَها
وتُعلنُ صوتَها
أعلى من الصفصافةِ الأولى
وأعلى من سلالمِ ذلكَ الأفقِ البعيدِ. . .

وسوف يجلسُ حولَها البحّارةُ الحُكماءُ
في أسمالِهم
وعلى جَدائلِهم بُروقُ البحرِ، والملحُ. . .
. . . .
. . . .
. . . .
السفائنُ سوفَ تُقلِعُ مرةً أخرى. . .

لندن، ١٠/ ٤/ ٢٠٠٢

استيحاش

تعالَي
كي أمتنعَ الليلةَ عن تدخين القنَّبِ
والتَّبِـغِ الهولنديّ. . .

تعالَي
كي أستمعَ الليلةَ للموسيقى
من فخِذيكِ المائستينِ،

تعالي
كي أتنقَّعَ بالشفتينِ

تعالَي
كي أسمعَ رِعشةَ أعماقِ الدّلتا
ضيِّقةً
حولَ غُصَينِ. . .

الآنَ تعالَي
كي أُضجِـعَ، حتى الصحوِ، العينينِ

تعالَي
يا ضامرةَ النهدين. . .

لندن، ١٨/ ٦/ ٢٠٠٢

تقليد عبد السلام عيون السُّود

لكأنّ وجهَكِ، يا صديقةُ، في المتاهةِ، وجهُ أختي
أَلَقٌ له أَلقٌ، ومعنىً غيرُ معنىً، أو كلامِ
لا بُدَّ أن أمضي، وأن أجدَ التفرُّدَ في الزِّحامِ
ولَئِنْ تعثّرتِ الخُطَى، ونسيتُ ما مَرمى سهامي
فلأنّ ما يعني الكلامُ الآنَ قد يعنيهِ صمتي
«أنا يا صديقةُ متعَبٌ حتى العَياء فكيف أنتِ؟»(*)

أمشي، ولكني المُسَمّرُ، والسّحابُ الجونُ بيتي
ماذا؟ أأهجسُ في الهجيرِ مَتالعَ الثلجِ البعيدِ؟
هل تُولَدُ البيداءُ من كَفّيَّ، أم كفّايَ بِيْدي؟
والنهرُ هل غنّى؟ أم الماءُ المتعتعُ بالنشيدِ؟
إني انتظرتُكِ لم تجيئي، وارتجيتُكِ. . . لم تَبتّي
«أنا يا صديقةُ متعَبٌ حتى العَياء فكيف أنتِ؟»

(*) اللازمة هي لعبد السلام عيون السود.

في الطائراتِ أحومُ، أسألُ عن مَداركِ حيثُ حُمتِ
زوّادتي بِيَدي، وملء مسدّسي الطلَقاتُ ملأى
أيظلُّ هذا الكونُ أشيبَ؟ كيف لم أعرفْه بدءا؟
سأُهاجِمُ الثُّكناتِ، أمنحُ جُندَها خبزاً ومنأى
وأصيحُ بالمدنِ التي نامت: لأجلكِ كان صوتي
«أنا يا صديقةُ متعَبٌ حتى العَياء فكيف أنتِ؟»

في لندنَ الخضراءِ تأخذني الشوارعُ نحوَ نَبْتي
لي نخلةٌ في أولِ الدنيا، ولي في النخلِ سعفةْ
والكأسُ ماءُ الطَّلعِ . . . يا ما كانتِ الأيامُ رشفةْ!
يا ما، ويا ما . . . فلتَغِمْ عيناكَ، ولْتُجْفِلْكَ رجفةْ
الليلُ يُضويني . . . أنا المقطوعَ عن ولَدي وبنتي
«أنا يا صديقةُ متعَبٌ حتى العَياء فكيف أنتِ؟»

هل يستقيمُ الخَطُّ، حتى عبرَ أنمُلةٍ ونَحْتِ؟
أم هل تدورُ دوائرُ الدنيا كما كنّا نريدُ؟
بالأمسِ كنّا أمسِ، أمّا اليوم فالأمسُ الجديدُ
أتقول لي عيناكِ إني في التساؤلِ أستزيدُ؟
قسَماً بآلهةِ العراقِ لأختمَنَّ عليكِ صوتي
«أنا يا صديقةُ متعَبٌ حتى العَياء، فكيف أنتِ؟»

لندن، ١٨/ ٢/ ٢٠٠١

لم يتغيَّرْ شيءٌ

لم يتغيّرْ شيءٌ
ما زالَ أبي يكدحُ بين النخلِ وماءِ المدرسةِ،
الناسُ يقولونَ. . .
ولكني أعرفُ نفسي خيراً حتى من نفسي؛
مثلاً:
أنا أعرفُ ما لا تعرفُهُ الصّحُفُ المأجورةُ،
أو أني أعرفُ أنْ أتأمّلَ في الشّاطئ
أعني أني أعرفُ أن أتأمّلَ في ذرّاتِ الرملِ
وفي ما يقذفُه البحرُ، قواقعَ أو عُشْباً
أو أسماكاً ميّتةً،
. . . .
. . . .
. . . .
لم يتغيّرْ شيءٌ:
مَأوايَ هوَ الغرفةُ، مُفرَدةً، في أحياءِ الفقراءِ
وقُوْتي الخُبزةُ والعدَسُ. . .
الأمرُ، إذاً، أبسطُ من أن يخفَى

أبسَطُ من أن يُخشى،
أرجوك. . .
. . . .
. . . .
. . . .
ستقولُ (لكَ الحقُّ تماماً) إنّ العالَمَ غيرُ العالَمِ
إنّ منارةَ كارل ماركسَ مُطْفأةٌ. . .
إنّ الشِّركاتِ العُظمى، عابرةَ الأقوامِ، مُخَيِّمةٌ
حَسَناً!
ما شأني أنا في هذا؟
أنا ما زلتُ فقيراً،
ما زِلتُ فقيراً، مثلَ أبي، أكدحُ، بين النخلةِ والماءِ. . .

لندن، ٥/ ٧/ ٢٠٠٢

طبيعة

مثلَ ما تنعقدُ الأبخرةُ البحريّةُ، الظُّهرَ،
على خِلْجانِ «بابِ المندِبِ». . .
استلقَى على الأشجارِ، في غربيّ هذي البلدةِ، الغيمُ.
تُرى، إنْ كان هذا الصيفُ، صيفاً
فلماذا يُطْبِقُ الغيمُ على عينيَّ
أو يَبْلُغُ ما تحتَ القميصِ؟
ارتَعشتْ في الدوحةِ الرَّطْبةِ أوراقٌ. . .
أتأتي، بَغتةً، فاخِتَةٌ؟
أنْصِتْ!
سيهتَزُّ، بِما لا ينتهي، خَيطُ الذّهول.

لندن، ٦/ ٧/ ٢٠٠٢

الرِّحلة

آنَ أرضَعُ غصناً من التوتِ. . .
أمْتَصُّ ذاكَ الحليبَ المُفَوَّهَ بالجَنّةِ:
الضَّوعِ
والعسلِ الأحمرِ؛
الشّمسُ في الماءِ
والماءُ في الخُصُلاتِ،
ارتَدى الزورقُ الصيفَ، أوراقَ دالِيةٍ
واصْطِفاقَ شِباكٍ. . .
سيأخذُني الماءُ
تأخذني، مثلَ ما أتَمَنّى، السماءُ
سأمضي إلى حيثُ لا أنتهي،
إلى حيثُ لا ينتهي التوتُ:
أمضي إلى حيثُ قد أبتَدئ. . .

لندن، ٩/ ٧/ ٢٠٠٢

مُتَغايِرات (١)

لا فجْرَ في عدَنٍ. . .
كأنّ الصُّبحَ سَمْتُ الشَّمسِ
والبحرَ المُيحطَ الفورةُ الأولى بمُبتَدأِ الخليقةِ،
قُلتُ يوماً: سوفَ أُمْضي الليلَ عندَ البحرِ
رُبّتَما اقتنصتُ الفجرَ
مثلَ الحُوتِ
أو مثلَ الحمامةِ. . .
كان سِيفُ البحرِ مرتخياً ومُؤتَلِقاً
طَوالَ الليلِ،
والأسماكُ، ناصعةً، تَقافَزُ؛
لم أشأْ أن أُغمِضَ العينينِ،
كنتُ أريدُ فجراً في يَدَيَّ. . .
فُجاءةً
وندىً؛
ومضيتُ في حُلمي. . .
. . . .
. . . .

. . . .

تُرى، هل أُغمِضَتْ عينايَ، لَحظةَ طِرْتُ؟

أمْ هل كانَ إيكاروسُ في وهَجِ الحريقِ!

. . . .

. . . .

. . . .

صديقتي:

لا فجْرَ في عدَنٍ. . .

لندن، ١٠/ ٧/ ٢٠٠٢

السّؤال الصّريح

قُلْ لماذا يُعَذبُكَ الشوقُ لامرأةٍ؟
أنتَ في منتهاكَ. . .
الحديقةُ مُخْضَرّةٌ،
والرفوفُ التي تتأمّلُ ملأى بما سوف تمضي بعيداً بهِ
والسماءُ انجلتْ بغتةً
والقميصُ الذي ترتدي الآنَ. . . سَبْطٌ نظيفٌ
وبَعدَ دقائقَ عشرٍ ستأتيكَ سيّارةٌ
لتغادرَ نحوَ المطارِ. . .
إذاً
قلْ: لماذا يُعذبكَ الشوقُ لامرأةٍ؟
. . . .
. . . .
. . . .
هل سَئِمتَ الحياةَ الرخِيّةَ؟
أَمْ هل سَئمتَ الحياةَ الرضِيّةَ؟
أمْ هل سئمتَ الحياةْ؟

لندن، ١٠/ ٧/ ٢٠٠٢

مُتغايرات (٢)

هذه البلدةُ(*) المُطْمئنةُ تبدو من البحرِ
قَفراً
بلا ساحلٍ
غير خَطَّينِ:
أخضرَ: حيثُ امتدادُ الحدائقِ
أبيضَ: حيثُ امتدادُ الفنادقِ
أمّا المصابيحُ فهي العيونْ. . .

هذه البلدةُ المطْمئنةُ تبدو من التلِّ
زهراءَ
ورْديّةً
تتدافعُ أمواجُها في الشوارعِ
حيثُ المَماشي غصونْ. . .

(*) البلدة هي «إيسْتْ بورن» Eastbourne.

هذه البلدةُ المطمئنّةُ
لن يَتَرذْرذَ بالماءِ فيها أحدْ
لن يغامرَ في البحرِ، حتى ولو سنتيمتراً، أحدْ
لن يغادرَها المُترَفونْ

زُمَّجُ الماءِ
والنَّورسُ الكَهْلُ
هُمْ أهْلُها الأقربون. . .

لندن، ١٠/ ٧/ ٢٠٠٢

مُتَغايِرات (٣)

هذه الشّقّةُ في باريسَ
(أعْني في الضّواحي الحُمْرِ)،
لم أَلْبَثْ بها وقتاً مديداً. . .
(ربّما عامَينِ)
لكني سقَيتُ الوردةَ النّضْرةَ
واطْمَأْنَنْتُ للأشجارِ والمَخبزِ والحانةِ فيها؛
واستَعَدتُ القلَقَ الباردَ في الهدأةِ
بل أرسلْتُ (هل تدري؟) بريداً
وتَلَقّيتُ بريداً. . .
وتنسّمتُ بها، ضَوعاً من الفردوسِ، في آخِرةِ الليلِ
وصُبْحاً ياسميناً. . .
(خَلِّنا من حسرةِ الذكرى!)
. . . .
. . . .
. . . .
أقولُ الآنَ:
إنْ المَرْءَ لا يَأْلَفُ إلاّ ما انتهى منهُ. . .

أَلَسْنا نتركُ النهرَ إلى النبعِ؟
أَلَسْنا نتركُ النومَ إلى الحُلمِ؟
أَلَسْنا نتركُ النَّهدَ إلى الرَّسمِ؟
. . . .
. . . .
. . . .
أقولُ الآنَ:
باريسُ أراها، هكذا. . .، مَنْثورةً
بينَ يَدَيّ!

لندن، ١١/٧/٢٠٠٢

دعوة عشاء

هيّأتُ مائدتي (لقد حلَّ المساءُ)
وقُلْتُ: قد تأتونَ. . .
فكّرتُ؛
الحياةُ طويلةٌ
ولَرُبّما لا يستحقُّ الأمرُ هذا الطّولَ،
فلْنجلسْ قليلاً حولَ مائدةٍ
لِنَنْسَ فَداحةَ الأشياءِ
والبابَ المُواربَ عندَ منعطَفِ الطريقِ الساحليِّ
وباقةَ الزهرِ التي ذبُلَتْ،
لِنَنْسَ كلامَنا
وتَلَكُّؤَ الفَتَياتِ
والأوراقَ
والشمسَ التي غربَتْ. . .
. . . .
. . . .
. . . .
لقد هيّأتُ مائدتي
وقُلتُ: لَعَلَّكم تأتون. . .

لندن، ١١/ ٧/ ٢٠٠٢

ما أصعبَ الأغنية!

مَن تُرى، أرسلَ الأغنية؟
لا أقولُ الهواءُ الذي يتبعثرُ بين الشجرْ
لا أقولُ القطاراتُ تهدرُ تحتَ الغيومِ الخفيضةْ
لا أقولُ انتهيتُ من الحُبِّ أمسِ. .
أقولُ: ليَ الصوتُ
تمتمةٌ
وتمائمُ
ترتيلُ تَرْ، تَرْ، وتَرْ، تَرْ. . . تراتيلُ
ترتدُّ
ترتادُ
ترتاحُ
تنداحُ
تَرْفَضُّ
تَنْهَدُّ
تَرتَدُّ. . .
. . . .
. . . .

. . . .

تنويمةٌ، أن نغَني، وأن ننتهي

أن نتمتمَ من منتهى التمتماتِ

النسيمَ

النبيذَ الذي ظلَّ منتظراً كلَّ تلك السنينْ

والبساطَ الذي لم يكنْ

والنسيجَ

النسيجَ الذي لن يُرى

والنشيجَ المباغِتَ،

. . . .

. . . .

ما أجملَ الأغنيةْ!

لندن، ١٩/ ٧/ ٢٠٠٢

أوكْتافْيا

أوكتافيا، لا تدخلُ من شُبّاكٍ. . .
أوكتافيا تقتحمُ السلّمَ، وثْباً، حتى بابِ الشقّةِ
تقذفُ نحو الكرسيّ حقيبتَها اليدويةَ
ثم تُؤرجِحُ ساقَيها
عابثةً بهواءِ الأوراقِ وما خَلّفَهُ مطرُ الليلِ على الأحداقِ؛
أقولُ لها:
«أوكتافيا، انتظِري!»
لكنّ لأوكتافيا شأناً آخرَ. . .
. . . .
. . . .
. . . .
في عطلتها الأسبوعيةِ
(أوكتافيا تَمْلكُ مقهىً بَلْجيكيّاً)
تأتي راقصةً، عبرَ البحرِ، لتأكلَني متلذذةً
وتنامَ عميقاً. . .
ثم تُفارقني في ثاني أيامِ الأسبوعِ؛
. . . .

أنا رجلٌ ذو تَبِعاتٍ
لكنّ البلجيكيّةَ لا تعرفُ هذا إذْ تعرفُ هذا. . .
أوكتافيا تعرفُ أنْ لها عطلةَ أسبوعٍ،
أنْ لها حقّاً في أن تأكلَني، مُتلذِّذةً
وتنامَ عميقاً؛
ثم تفارقني في ثاني أيامِ الأسبوعِ. . .
. . . .
إذاً؟
هل أُدخِلُ أوكتافيا في تَبِعاتي؟

لندن، ٢٠/ ٧/ ٢٠٠٢

الثّالث من آب ٢٠٠٢

. . . والآنْ
تبدأُ أيّامُ الآحادِ تطولُ
كأيامِ الأعيادِ وراءَ القضبان؛
الأشجارُ مُثَبّتةٌ بمساميرَ إلى الأفقِ الرّطْبِ
وأبوابُ الشارعِ مُوْصَدةٌ

حتى الحانةُ في المنعطفِ انكفأتْ تحتَ رذاذٍ من مطرٍ في ذاكرةِ القطِّ.
الدكّانُ الهنديّ هو الباقي. لن أُوقِدَ مِجْمرةً. سأعودُ إلى الأوراقِ الأولى. سأقَلِّبُ ما اكتنزَتْه العينانِ. غريبٌ أن أشعرَ بالرجفةِ تحتَ عظامِ ذراعَيَّ. عشاءُ الناسِ أُعِدَّ، موائدهُ صُحفُ الصبحِ الكبرى: سَمَكٌ وبطاطا. سَمَكٌ وبطاطا. أحياناً أسمعُ بوقاً. هل أزِفَتْ ساعتُنا؟ هل نرجعُ في منتصفِ الليلِ؟ أنا لا أحملُ (لا أملكُ) إلاّ الأوراقَ الأولى، وخفيفاً سأكونُ، خفيفاً ونظيفاً. . .

أنا أنسى أحياناً
أنسى، مثلاً، أنّ اليوم هو السبت، وليس الأحدَ. . .

ـ الأمرُ بسيطٌ ـ
فالأيامُ تطولُ
الأيامُ، جميعاً، كالآحادِ، تطولُ
ولكنّ الشُّرفةَ
حتى في المطرِ الصامتِ،
ظلّتْ مفتوحةْ. . .

لندن، ٣/ ٨/ ٢٠٠٢

تبدأُ الحربُ...

من عواصمَ باردةٍ، تبدأُ الحربُ
من غُرفاتٍ بلا مَعْلَمٍ
من شوارعَ لم تستضِفْ شجراً
من مَخابئَ تعرفُها الذبذباتُ التي لن تُرى
من جهازٍ يضيءْ
لحظةً ثم أخرى. . .
من مقالٍ رديءْ.
هكذا تبدأُ الحربُ:
يستَبِقُ الحربَ مَن لم يَذُقْ طَعْمَها
هو مَن يَعْلَمُ:
الحربُ أصلٌ. . .
. . . .
. . . .
. . . .

هنا، ظلَّ شِبْهُ الرذاذِ يُرطِّبُ أزهارَ آبَ، ولم تزلِ الشرفةُ اليومَ شرفةَ أمسِ. الشوارعُ تلك الشوارعُ. مَسْمَكةُ الحيّ تُفتحُ في التاسعةْ. ربّما سَبَّبَ الطّلْعُ ضِيقَ التنفّسِ. أُحْ. . . أُحْ. . .

غداً سوف تغلق كلُّ المَصارفِ أبوابَها. أنتِ لن تُغلقي. فَلْنَقُلْ: ذاهبانِ إذاً نشهدُ الأوبرا. لا! أنتِ فضّلْتِ أنْ نَصحبَ الكلبَ.

والحربُ تبدأُ...

لندن، ٢٠/٨/٢٠٠٢

الفصول (١)

مثل قشرةِ تفّاحةٍ غيرِ صالحةٍ للتناولِ، غادَرنا الصيفِ
والآنَ تبدو سماءُ الصباحِ أشدَّ رماديّةً
وأقلَّ امتلاءً. . .
كأنّ على العشبِ منها، السوادَ؛
النوافذُ مغلقةٌ، شأنَها أبداً
والرذاذُ الذي لا يُرى يستحيل بصدري هواءً،
. . . .
. . . .
. . . .
أتأتي الفصولُ، إذاً، وتغادرُ، كالصيفِ؟
إنْ كان أمْرُكَ هذا، ففيمَ السؤالُ عن الوقتِ؟
فيمَ التساؤلُ عمّا يجيءُ. . .

انتهيتَ؟
أم الليلُ، ذاكَ الذي قد بلغتَ نهايةَ أوهامِهِ
بَلَغَ الانتهاء؟

لندن، ٣٠/ ٨/ ٢٠٠٢

الفصول (٢)

لَكأنني في صَرِّ موسكو، أكسحُ الثلجَ الذي غطّى مَمرَّ البابِ لكنني
هنا، في لندنَ، الكبرى، أُقَطِّرُ ما تبَقّى من رماد الصيفِ في قنِّينةٍ.
لَمّا يزلُ أيلولُ في كُتبِ الأغاني ناعساً. عيناي متعَبتانِ مِمّا اشتَطّتِ
امرأةٌ طوالَ الليلِ. قُلْتُ: أُلامِسُ الأوراقَ في النبْتِ الذي ذاقَ الندى
وتَسلَّقَ الأعماقَ. قلتُ: سأهتدي من نبْضِ أُنمُلةٍ ونُسْغٍ. قلتُ:
ألتجئُ الصباحَ إلى قميص الخِضْرِ، أو خضراءِ «لورْكا»، أو إلى هذا
النباتِ المُعتَلي بابي. . .

فتحتُ البابَ:
ضَوعٌ من رذاذٍ في حدائقِ مَن أحاطوا بي، وذكرى من شموسٍ في
دفاترَ مَدرسيّاتٍ، وعَرْفٌ لا يزال مُعلَّقاً بي من غصونِ الليلةِ
البيضاءِ. . . كان نباتُ بابي مثلَ ما كان؛ التمَسْتُ وُرَيقةً أولى. . .
تهاوتْ، ثم ثانيةً،
تهاوتْ. . . وأخرى إثرَ أخرى. أصبحَ المَمْشى خريفاً، بغتةً. من
أينَ جاءت صُفرةُ الأوراقِ؟ كيفَ اسّاقَطَ المعنى؟ تُرى، ما نفْعُ أن
ألقي على ما في الأعالي نظرةً؟
إني أردتُ، فلم أجدْ بابي. . .

لندن، ٣٠/ ٨/ ٢٠٠٢

الفصول (٣)

من أين هذي الرجفةُ؟
انسَلَتَ اللحافُ الصوفُ ريشاً
مثلَ ريشِ البطِّ مبْتَلاً
وغَلغَلَ في عظامي الثلجَ. . .
عبْرَ زجاجِ نافذتي أرى شمساً وأشجاراً
وشُبّاناً وشابّاتٍ عراةً في الحديقةِ؛
غرفتي، كالحصنِ، مغلقةٌ
وكالزنزانةِ انطبقَتْ عليَّ. . .
فأيُّ عاصفةٍ أتتْ بالثلجِ؟
أيُّ ثعالبٍ قطبيّةٍ دخلتْ مبللةَ الفِراءِ علَيَّ؟
وأيُّ زوبعةٍ تُدَوِّرُني، أنا، الخذروفَ. . .
. . . .
. . . .
. . . .
كنتُ أغوصُ، أعمقَ، في فراشي
دائخاً، متصبِّباً عَرَقاً
ومُثلَّجَ الأعضاءِ. . .
كنتُ أغوصُ بين الماءِ والنارِ.

لندن، ٣١/٨/٢٠٠٢

الفصول (٤)

الأزهارُ البيضُ من النبتِ المتسلِّقِ
تَسّاقَطُ، طولَ اليومِ، على الممشى، في طابقيَ الثاني؛
هذي الأزهارُ البيضُ مكوّمةٌ
تلمعُ ذابلةً
مثل ترابِ نجومٍ ظلّتْ تتهاوى طولَ الليلِ. . .
أحاولُ أن أتفادى الوطءَ
أخففَ من أعبائي حين أسيرُ على الممشى،
لكنْ. . . عبَثاً
فالأزهارُ البيضُ تدورُ، وإنْ كانتْ ذابلةً
تُمسِكُ بي
تأخذني من شِسْعِ حذائي
كي تبلغَ شَعري. . .
متناثرةً، متألقةً فوقَ قميصي الصوفِ.
. . . .
. . . .
. . . .

الليلةَ جاءتني الأزهارُ مع الحلمِ
لتأخذني معها. . .

سأكونُ سعيداً!

لندن، ٢/ ٩/ ٢٠٠٢

ثلاثُ محاولاتٍ لعلاقة

أنا أقدرُ أن أفتحَ جَفنَيَّ دقائقَ
لكني لا أقدرُ أن أفتحَ عينيّ. . . مساءَ البارحةِ التفّتْ كلُّ وشائعِ أيامي حولَ عروقي. ظلّتْ تلتفُّ وتضغطُ، تلتفُّ وتضغطُ، حتى سالتْ شمسٌ بين يدَيَّ. على أُصُصِ الأزهارِ بدا الطُّحْلُبُ أخضرَ في لونٍ مائيٍّ. ماذا سيُغَنِّي صُعلوكُ الحَيّ؟ ستندفعُ الزيناتُ مُفرقِعةً من جهةِ الغربِ. الشّمسُ تسيلُ. وآخِرُ قنّينةِ خمرٍ شِيلِيٍّ رحَلتْ.

أنا أقدرُ أن أفتحَ جَفنيَّ دقائقَ
لكني لا أقدرُ أن أفتحَ سمعيْ. . . الشارعُ مكتومٌ، لَكأنّ السيّاراتِ على عشبٍ تَدْرُجُ. والموسيقى من بئرٍ تخرجُ. أهجِسُ صلصلةً في الحنفيّةِ. . .
سلسلةً من ذهبٍ تسقطُ من رفٍّ كي تتكوّمَ في طرفِ السجّادةِ. هل يتكلمُ هذا المصباحُ؟ البابُ المؤصَدُ صَرَّ صريراً. . . أعرفُ أنّ ينابيعَ، ينابيعَ مُغَلْغَلةً، تترقرقُ بين السبّابةِ والإبهامِ؛ تُرى. . . هل أسمعُها؟

أنا أقدرُ أن أفتحَ جفنَيَّ دقائقَ

لكني لا أقدرُ أن أستافَ. . . وفي بستانِ البيتِ، قديماً وبعيداً، في البصرةِ،
كانت أزهارُ الخشخاشِ. وعندَ مُسَنّاةِ الماءِ تفوحُ روائحُ من سَمكٍ وطحالبَ.
كنا أحياناً ننهلُ من ماءِ الطَّلْعِ. أتعرفُ كيف تكونُ القيلولةُ تحتَ غصونِ التينِ؟
وكيف تكونُ بَواري المَدْبسةِ؟ الليلُ سيهبطُ مثلَ صبابٍ أزرقَ في «حمدانَ».
سيمتدُّ اللبلابُ المُزْهِرُ في الدمِ. . . سوف يكونُ شميماً.

لندن، ٢٦/٨/٢٠٠٢

مُعايَنة

يَنسجُ العنكبوتُ على بابِ بيتيَ
أثوابَهُ العاريةْ،
لِيَمُرَّ الهواءْ
وتَمُرَّ الروائحُ
والصيفُ
والضوءُ
حتى كأنّ السماءَ ابتداءْ
. . . .
. . . .
. . . .
ينسجُ العنكبوتُ على الباب
ما غاب؛
ينسجُ معنى الرداءْ. . .

لندن، ٢٨/ ٧/ ٢٠٠٢

رُباعيّةٌ أيضاً...

سعدي
المتوحدُ والأفعى
لا يعرف أن يأكلَ في المطعمِ

والمطعمُ مكتظٌّ بزبائنهِ. المطعمُ يَبعُدُ أمتاراً حَسْبُ عن النهرِ. به سَمَكٌ، ومُخَلّلُ مانجو الهندِ، وأرغفةُ التنّورِ،
وكان الناسُ سكارى بالعَرقِ المسمومِ ورائحةِ البارودِ البارِدِ في الجيبِ الخلفيّ. وفي هذا الغسَقِ ارتعشَ الضَّوءُ قليلاً. هل نادى اللبلابُ زهورَ البوقِ؟ وهل تَخْطُرُ في الأبخرةِ امرأةٌ؟ سوف يكون الناسُ سعيدينَ. . . يموتُ الناسُ سعيدينَ: العَرَقُ الطافحُ، والبارود. . .

سعدي
المتوحدُ والسيف
لا يعرف أن يجلسَ في بَهوِ سياسيِّين

كم حاولتُ، طويلاً، أن أدخلَ في البهوِ المفتوحِ! لقد أمضيتُ العُمْرَ بهذي اللعبةِ. يُغريني المشهدُ عن بُعدٍ: أبواقٌ، وسماسرةٌ، وحقائبُ. أحياناً تأتي امرأةٌ بالويسكي في أكوابِ الشاي. وقد يُمسِكُ قردٌ بمُكبِّرِ صوتٍ. يَصّاعَدُ في الليلِ رصاصٌ أعمى. حُجِزتْ كلُّ مقاعدِ هذا البهوِ، وعندَ البابِ اصطفَّ المنتظرونَ. لماذا؟ هل تسألني؟ أنا لا أعرفُ كُوعي من بُوعي. أنا لا أعرفُ حتى سترةَ من يسألُني.

سعدي
المتوحدُ والحلزون
لا يعرف أن يتقدمَ (حتى بين رفاقِ العمرِ) مُظاهرةً

خيرٌ لك أن تجلسَ ملتصقاً بالمصطبةِ الخشبيةِ. ماذا ستقولُ لو استعجلْتَ وراء القومِ؟ فأنتَ هنا، ملتصقاً بالمصطبة الخشبيةِ، سوف ترى المشهدَ مكتملاً.
لن تدفعَ بالمنْكبِ جاراً. لن تتدافعَ كي تحظى بالصورِ الفوتوغرافيةِ... قد يجلسُ لِصقَكَ مَن أنهكَهُ السيرُ. وقد تتحدثُ عن قاراتٍ أخرى. هل تُنْكرُ أن العالمَ يبدو أجملَ حين تراقبُه من مصطبةِ الحانةِ؟ إن رفاقكَ يندفعون خِفافاً في الشارعِ. أنت تراهمْ. هذا يكفي.

سعدي
المتوحدُ والمِرآةَ
يحاولُ أن يتصوّرَ ما هو أبعدُ منها. . .

أنتَ رأيتَ. . . فماذا بعدُ؟ الأشجارُ وفوضى الشارعِ والمرأةُ والطيرُ جميعاً في المِرآةِ. ووجهُكَ أيضاً في المرآةِ. إذاً، ماذا بَعدُ؟ ألَمْ تسأمْ هذا؟ لكنكَ لن تغلقَ نافذةَ المَرأى طبعاً. . . أَوَلَمْ تتفَكَّرْ في ما خَلَقَ المَرءُ؟ إذاً، فَلْتَبْرأْ من هذا الصّلصالِ طيوراً! إنكَ لم تأتِ لكي تتملّى المِرآةَ، ولم تأتِ لكي تسكرَها. هل أتعَبَكَ الدربُ؟ وهل خذلتْكَ خُطاكَ؟ انظُرْ تحتَ غطائكَ، وانتظرِ الصّبَواتْ.

لندن، ٢/ ١٠/ ٢٠٠٢

ذبذبات

للخريف الذي ظلَّ يمضي، لآخِرِ أوراقهِ، تهمسُ الريحُ في مطرٍ ناعمٍ. أنا أسمعُ ما تَنطقُ الريحُ. أَلْمُسُ ما تَحملُ الريحُ. أَغْمسُ هُدبي بأمواجها. القريةُ ارتحلتْ منذُ قرنٍ، وها أنت ذا لا ترى غيرَ مقعدها الخشبيّ الوحيدِ، وساحتِها الخاويةْ.

قد كنتُ هيّأتُ الشعاراتِ العشيّةَ. سوف يأتي أحمدُ النجديُّ حتماً بالعِصِيّ. وسوف تنطلقُ المظاهرةُ الظهيرةَ حينَ تزدحمُ الأزقّةُ في محيط السُّوقِ. أيُّ منازلٍ ستقول: أهلاً، حينَ ينطلقُ الرصاصُ؟ كأنّ ضَوعاً من حدائقَ في الغيومِ يسيلُ من كفِّي. كأني في الغمامْ.

ترحلُ الريحُ أيضاً، ويرحلُ عن شجرِ الساحةِ المطرُ الناعمُ. الليلُ لن ينتهي. هو لم يبدأ. الليلُ لن يبدأ. الليلُ حقٌّ كما الموتُ حقٌّ. كما اللَّهُ.
أنت هو المترحلُ. أنت الذي لم يجدْ عبرَ كلِّ المفازاتِ إلاّ مصاطبَ في قريةٍ.
وهي حجّتكَ اليومَ. قُلْ لي، إذاً، ما أوانُ الرحيلِ إلى الهاويةْ؟

أتظلُّ تسألُ: هل أظلُّ ضجيعَها منذ انتصاف نهارِ هذا السبتِ حتى مَوْهِنِ الأحدِ؟ المدينةُ في ضواحيها... كأنكَ صرتَ تجهلُ أنّ ماريتا تحبّ السوقَ مكشوفاً ومؤتلقاً، وتجهلُ أنّ ماريتا ستشوي الجَدْيَ. ماريتا ستُحضرُ خُبزَها البيتيّ. فَلْتقرأْ على الأحدِ السلامْ

الستائرُ شفّتْ، وغامَ الزجاجُ. أنا الآنَ أُبصرُ في الداخلِ، المَشهدَ. الغرفةُ ابتعدتْ عن تفاصيلها؛ والأريكةُ صارتْ مَمَرّاً، وهذا البساطُ الذي كنتُ أحسِبُ وِحداتِهِ صارَ نهراً، ولم تَعُدِ اللوحةُ امرأةً عاريةْ.

....

....

....

بغتةً... أسمعُ الخطوَ!

هل جاءني من سيصحبني في طريقِ الظلامْ؟

لندن، ٢/١١/٢٠٠٢

الطيفُ ذو البيريّة

قبلَ أربعين عاماً
كان حسن سريع مرشَّحاً لأحدِ منصبين:
وزير الدفاع في جمهورية العراق الديمقراطية
أو العريف الأول (مثل ما كان شكري القوّتلي مواطناً أول).
الآن، وقد مرت أربعة عقود
تظل بيريّةُ حسن سريع المطويةُ مثل مسدس
حادّةً، خفيّةً، كأنها في طيّتها الأولى
ذلك الصباحَ بمعسكر الرشيد. . .
ومن يدري؟
ربما انتبه أحدُهم إلى قولة أوريانا فالاتشي:
المسدس ليس سلاحَ دفاعٍ
ولأنّ هذا المنتبِه لا يملكُ مسدساً
فلسوف يستعير من حسن سريع بيريّتَه، ولو لدئائقَ
(أنت تعرف. . . التفتيش، وأجهزة كشف المعدن المتطورة. . . إلخ)
وأنت تعرف أيضاً أن بضع دقائقَ ستكفي حتماً
(حكّامُنا جبناء كالعادة)

آنَها لن ينافسَ أحدٌ حسن سريع
على منصب وزير الدفاع في جمهورية العراق الديمقراطية. . .
إذ ليس من الواقعية أن تتوجّه في دبابةٍ حديثةٍ
لتُسقطَ طيفاً
هالتُهُ بيريّةٌ مطويّةٌ!

لندن، ٦/ ١١/ ٢٠٠٢

القطُّ تحت المطر

كأنيَ الليلةَ في الهندِ. . .
أهذا الموسميُّ، المطرُ؟
امتدّتْ يدي
أفتحُ سنتيمترينِ زجاجَ شُبّاكي
أُزيحُ شيئاً من ستارةِ الشُّبّاكِ،
فكّرتُ:
تُرى، أين يبيتُ الليلةَ، السنجابُ
والطيرُ
وتلك النحلةُ؟
المصطبةُ الوحيدةُ استرجعتِ الليلةَ عِرْقَ الغابةِ،
العالَمُ يبدو لي غسيلاً هائلاً
لن ينشفَ، البتّةَ، في الشمس التي ليستْ سوى
ذكرى من الهندِ
وممّا دوّنَ النخلُ عن الهندِ. . .
وفي اللحظةِ هذي انطفأتْ سجارتي
. . . .
. . . .

. . . .

الأسماكُ في بحيرةِ الغابةِ قد غُصْنَ إلى الأعماقِ حتماً؛
وحدَه، القطُّ، سيلقى الصبحَ طيراً صادحاً
في ساعة الحائطِ
في رطوبة السُّلّمِ

. . . .

. . . .

. . . .

ما أبهى المطرْ!

لندن، ١٢/ ١١/ ٢٠٠٢

محاولةٌ أولى في الضّباب

أنْهَرَ(*) الصبحُ . . .
جاوزتِ الساعةُ العاشرةْ
غيرَ أن الضبابَ الذي رَقَّ، ينسجُ أثوابَه الآنَ،
يجعلُ حتى أعالي الشجرْ
بِضعةً منهُ،
يجعلُ حتى الستائرَ لوناً خفيّاً ويمضي بها نحوَ أمواجهِ الثابتةْ.
. . . .
. . . .
. . . .
أيَّ لونٍ أرى؟
أيُّ مسطرةٍ للتدرُّجِ أرقى بها أو أُتابعُها؟
أيَّ ثلجٍ ألامِسُهُ؟
أيَّ مِلْحٍ أذوقْ؟
. . . .
. . . .

(*) أنهَرَ، فعلٌ منحوتٌ قياساً، معناه: صار الصبحُ نهاراً.

. . . .

سوف أغمضُ عيني وأفتحُها:
أيها العشبُ
يا أيها العشبُ
يا أيها العشبُ
كُنْ ثابتاً، يا حليفي، ثباتَ السّرابْ!

لندن، ١٠/ ١١/ ٢٠٠٢

محاولةٌ ثانيةٌ في الضباب

تغيبُ الخيولُ عن العشبِ؛
لم يَعُدِ العشبُ مرأىً. . .
بياضٌ من الأرضِ مُصّاعدٌ
وبياضٌ من الماء مُصّاعدٌ،
والمراكبُ (تلك التي تصلُ النهرَ بالبحرِ)
غابتْ عن النهرِ قبلَ الخيول،
وأسيِجةُ الحقلِ غابتْ
ولم يبقَ في اللوحةِ المستفيضةِ إلا أعالي الشجرْ. . .
إذاً، كيف نمضي؟
المسافةُ بين الطريقِ ومنعطفِ القريةِ الآنَ
مثلُ المسافاتِ بين السماءِ وأوراقِنا. . .
والنهارُ الذي نحن فيهِ، يكون النهارَ الذي لم نَعُدْ نحن فيهِ،
. . . .
. . . .
. . . .
الخيولُ تغيبُ عن العشبِ
هادئةً في الضّباب. . .

لندن، ١٩/ ١١/ ٢٠٠٢

محاولةٌ ثالثةٌ في الضّباب

لم يَعُدْ لدخانِ السجائرِ لونٌ. . .
من النافذةْ
يدخلُ الأبيضُ المستسرُّ
من النافذةْ
تدخلُ الطّلَقاتُ البعيدةُ إذْ تمتطي موجَ أصدائها:
أهي بضعُ سرايا جنودٍ تُواصلُ تدريبَها؟
أهيَ مدرسةُ الصيدِ في المَرْجِ؟
أهي البلادُ البعيدةُ؟
كان الضبابُ، الظهيرةَ، ينْحَلُّ في قُزَعٍ
ومرايا؛
وكان الهواءُ الذي ظلَّ ملتصقاً بالرطوبةِ يخسرُ أغلالَهُ. . .
بغتةً، مرَقَ الطيرُ
. . . .
. . . .
. . . .
مَن قال لي: «ستموتُ العشيّةَ»؟
إني رفيقُ الضباب. . .

لندن، ١٩/ ١١/ ٢٠٠٢

نَبْتةُ الآس

إذاً، كيف تمضي إلى آخرِ الدربِ؟
(أعني إلى حانةِ الشاطئِ)
اليومَ كان المطرْ
والضبابْ
يُغِيْمانِ حتى تهاويلَ ساحَتِكَ:

السّهمُ (وهو المؤشِّرُ) غابَ،
السبيلُ الذي كنتَ تسلكُهُ بين بابكَ والسّاحةِ
اندلقَ الآنَ بين السيولِ
(الحقيقةُ: كان السحابُ كثيفاً)
وأدركتَ، في بغتةٍ، أنّ كلّ المساءِ الذي كنتَ ترتابُهُ
هابطٌ (لا كما كنتَ عُوِّدتَهُ)
إنهُ
هابطٌ كالحجرْ
ألشجرْ
غائمٌ
والمطرْ

عائمٌ في الذهول. . .
الخرائطُ (تلك التي كنتَ تنأى بها، وتسافرُ في نورِها)
انتقعتْ مثلَ صَنْدَلكَ؛
(الآسُ نبتٌ غريبٌ)
. . . .
. . . .
. . . .
إذاً، سوف تمضي إلى آخرِ الدربِ
تمضي ورائحةَ الآسِ
تمضي. . .

لندن، ٢٨/ ١١/ ٢٠٠٢

الاحتلال ١٩٤٣

نحن الصبيانُ حُفاةُ الحيّ
نحن الصبيان عُراةُ الحيّ
نحن الصبيان ذوو المِعَدِ المنفوخةِ من أكلِ الطين
نحن الصبيان ذوو الأسنانِ المنخورةِ من أكلِ التمرِ وقِشرِ اليقطين
نحن الصبيان سنصطفُّ، صباحاً، نستقبلكم بالسعفِ الأخضرِ
من قبرِ الحَسنِ البِصريِّ إلى أولِ نهرِ العَشّارِ. . .
سنهتفُ: عشتُمْ!
وسنهتفُ: دُمتُمْ!
وسنسمعُ موسيقى القِرَبِ الأسكتلدنيّةِ مبتهجين. . .
أحياناً نضحكُ من لِحيةِ جنديٍّ هنديٍّ؛
لكنّ الخوفَ يُخالطُ ضحكتَنا، ويخالِفُها. . .
نهتفُ: عشتُمْ!
نهتفُ: دمتُمْ!
ونمدُّ لكم أيدينا: أعطُونا خبزاً،
نحن جياعٌ منذ وُلِدنا في هذي القريةِ. . .
أعطُونا لحماً، عِلكاً، عُلَباً، سَمَكاً

أعطونا كي لا تطردَ أُمٌّ ابناً،
كي لا نأكلَ طيناً وننام. . .
نحن الصبيان حُفاة الحيّ
لا نعرفُ من أين أتيتُم
ولماذا جئتُم
ولماذا نهتفُ: عشتُم. . .
. . . .
. . . .
. . . .
والآنَ سنسألُكم: هل ستظلون طويلاً
ونظلّ نمدُّ لكم أيدينا؟

لندن، ٣/ ١٢/ ٢٠٠٢

مشهدٌ مشوّشٌ

ريحٌ. . .

كأنّ الطائراتِ تُغِيرُ عن بُعدٍ:

كأنّ عزيفَ جِنٍّ في محيط الغابةِ

الأشجارُ ترتطمُ ارتداداً وارتعاداً وابتعاداً عبرَ ما كان البحيرةَ في زجاج الشرفةِ.

الآنَ. . . المساءُ يجيءُ مقروراً، رصاصيّاً. طيورُ البحرِ غابتْ في الأساطيرِ.

السقوفُ تنوءُ بالقرميدِ، توشكُ أن تطيرَ طليقةً والريحَ. آخِرُ ما تساقطَ من وريقاتِ الخريفِ مضى ودوْرتَهُ. أساحةُ قريةٍ أم مشهدٌ في السينما للصمتِ؟

حلّقَ طائرٌ من آخر البستان منعطِفاً ومنخفضاً كمقذوفٍ من الفَخّارِ. . .

أروقةُ المساءِ تغيبُ

. . . .

. . . .

. . . .

ريحٌ
والسّماءُ بلا سماءٍ
والمَمَرُّ إلى الطريقِ بلا ضياء. . .

لندن، ١٠/ ١٢/ ٢٠٠٢

عُرسُ بناتِ آوى

أمُظَفّرُ النوّاب
ماذا سوف نفعلُ، يا رفيقَ العُمْرِ؟
عرسُ بناتِ آوى. . . أنتَ تعرفُ قديماً:
نحن نجلسُ في المساءِ الرّطبِ تحتَ سقيفة القصبِ؛
الوسائدُ والحشايا من نَديفِ الصوفِ
والشايُ الذي ما ذقتُ طعماً، مثله، من بعدُ،
والناسُ. . .
الظلامُ يجيءُ، مثل كلامنا، متمهلاً
والنخلُ أزرقُ
والدخانُ من المواقدِ كالشميمِ،
كأنّ هذا الكونَ يبدأُ. . .
. . . .
. . . .
. . . .
فجأةً، تتناثرُ الضحكاتُ، بين النخلِ والحَلْفاءِ:
عرسُ بناتِ آوى!

* * *

أمظفّر النوّاب
ليس اليوم كالأمسِ (الحقيقةُ مثل حُلمِ الطفل)
نحن اليومَ ندخلُ فندقاً للعرسِ
(عرسِ بناتِ آوى)
أنتَ تقرأُ في صحائفهم قوائمَهم
فتقرأ:

يمرّونَ بالدَّهنا خفافاً عِيابُهُم ويخرجْنَ من دارِينَ بُجْرَ الحقائبِ
على حينِ ألهى الناسَ جُلُّ أمورِهم فَنَدْلاً زُرَيقُ المالَ نَدْلَ الثعالبِ

* * *

أمظفّرُ النوّاب
دعنا نتّفقْ. . .
أنا سوف أذهبُ نائباً عنكَ
(الشآمُ بعيدةٌ)
والفندقُ السرِّيُّ أبعَدُ. . .
سوف أبصقُ في وجوه بناتِ آوى
سوف أبصقُ في صحائفهم
وأبصقُ في قوائمهم
وأُعلِنُ أننا أهلُ العراقِ
ودوحةُ النَّسَبِ
وأُعلِنُ أننا الأعلَونَ تحتَ سقيفةِ القصبِ. . .

لندن، ٢٠٠٢/١٢/١١

إصغاءُ الأصَمّ

شجرٌ
لستُ أعرفُ ماذا أُسَمِّيهِ
يَطرقُ ما تَجْمعُ النافذةْ
من فضاءٍ. . .
كأنّ الغصونَ التي عَرِيَتْ صارت المعْدِنَ المستحيلَ،
الأصابعَ في مَرسمٍ لصديقي الذي جُنَّ. . .
. . . .
. . . .
. . . .
كان الضبابُ يَشِفُّ
قليلاً
قليلاً
عن النبتةِ ـ النقشِ في ما يقالُ الستائرُ؛
أُصغي إلى نفَسي في البيانو المعطّلِ
هل آنَ أن أرتدي ما يقيني
وأخرجَ؟
(إني أحسُّ صلاصلَ في الصُّدغِ)

لكنما الغابةُ الآنَ تدخلُ مَنأى الضبابِ. . .
إذاً، لن أغادرَ زاويتي؛
سوف أتْبَعُ (أسمعُ؟) ما يصنعُ الكونُ
ما تفعلُ النغَماتُ الخَفِيّةُ بي. . .
سوف أُغْمضُ خطوي
وأُرهِفُ هجْساً تلاشَى
لأمضي إلى ما يريدُ الضباب.

لندن، ١٩/ ١٢/ ٢٠٠٢

قَرنفلٌ

من أين رائحةُ القرنفلِ؟
شَعرُها؟
أم إبطُها؟
أم ثوبُها الملقى على سجّادةِ البوشناقِ؟
ليلى
منذُ ثالثِ خطوةٍ في البيتِ
تجعلُ كلَّ ما في البيتِ ضَوعَ قرنفلٍ؛
ليلى
هي البستانُ رَطْباً
وهي ما يتنفّسُ البستانُ مَسْقيّاً وليليّاً،
وليلى الآنَ
تعرفُ أنني ثَمِلٌ برائحةِ القرنفلِ
فهي تَرتقُ ما تناثرَ من غيومي ثم تنشرُها سماءً
كالمُلاءةِ. . .
إن ليلى، وهي مطْبِقةٌ،
تحسُّ بأن أناملي خدِرَتْ على الكُثبانِ

تعرفُ أنّ نبضي نبضُها
وصَبيبَ مائي ماؤها. . .
. . . .
. . . .
. . . .
ليلى
ستتركني أنامُ مهدهَداً بين القرنفلِ والغمام!

لندن، ٢٠/ ١٢/ ٢٠٠٢

مُنتبِذاً في عطلة الميلاد

للخرافِ التي ترتعي كلأَ المَرْجِ ضامرةً كالظِّباءْ
للطريق الذي يلتوي
صاعداً مرةً
هابطاً مرّةً،
للخيول التي تتأمّلُ عبرَ السياجْ
للبيوت التي تصلُ الأرضَ، من دَعةٍ، بالسماءْ
للبحيرات تَخْفى وتبزُغُ
للطيرِ. . .
أسْلَمْتُ كَفّينِ مفتوحتينِ:
أما لَهُما، اليوم، من مالئٍ؟
. . . .
. . . .
. . . .
فجأةً
ثَمَّ نجمٌ هوى. . .
سقطتْ قطرةٌ، دونما دِيمةٍ للمطرْ؛
أتُرى كنتُ أرحلُ في الراحتَين؟

لندن، ٢٧/ ١٢/ ٢٠٠٢

موسيقى غرفةٍ

من غرفة النومِ التي تعلو على شجر الحديقةِ
وهو يَقْطرُ
كنتُ أسمعُ قُرصَ موسيقى. . .
لقد كان الصباحُ مبطَّناً بالماءِ
مخضرّاً
وسرِّياً
وكنت أرى الرذاذَ ولا أرى
وأحسُّ بالبرد الخفيفِ ولا أحسُّ. . .
كأنّ طيراً يختفي، مترنِّحاً، في الأفقِ؛
. . . .
. . . .
. . . .
سوف أتابعُ الإصغاءَ، ملتحفاً بجِلْدي
أو أحاولُ أن أقول.

لندن، ٢٩/ ١٢/ ٢٠٠٢

الهُدوء

في الضواحي
عندما تلمسُ أولى قطراتِ المطرِ، الأشجارَ
والقرميدُ يغدو، فجأةً، أسودَ جوزيّاً
وتبْتلُّ قليلاً ساحةُ القرية. . .
يجري جدولٌ من آخرِ الدنيا
ويسري في الأصابيعِ؛
(الضحى ليلٌ؟)
وهل في الغفلةِ الكبرى تَمَشّى في العروقِ النخلُ؟
. . . .
. . . .
. . . .
كم بئرٍ ستُطوى
آنَ ما ينْقَضُّ، كالصّخرِ، المساء!

لندن، ٣١/ ١٢/ ٢٠٠٢

نصيحةٌ متأخرةٌ

قالَ: إنْ ضاقتْ بكَ الغرفةُ، فلْتنظرْ عميقاً في السماءْ
أنتَ لن تخسرَ شيئاً؛
فالخساراتُ التي حدّثتَني عنها (وكنّا نقطعُ الغابةَ)
صارتْ عَجّنةَ الصّلصالِ في كفّيكَ. . .
صارتْ خطوةً تاليةً.
ما نَفْعُ أن تجلسَ في الغرفةِ مقروراً؟
وما نفعُ الأغاني آنَ ما تسمعُها وحدَكَ؟
أنصِتْ لأعالي الشجرِ الأجردِ
أيّانَ تهبُّ الريحُ،
أنصتْ للشبابيكِ التي توصَدُ يوميّاً ولا توصَدُ
أنصِتْ للسكون. . .
. . . .
. . . .
. . . .
أنتَ من علّمَني هذي الأحابيلَ
فما طَعْمُ الكلام؟

لندن، ١٠/ ١/ ٢٠٠٣

نارُ الحطَّابينَ

منذُ ثلاثةِ أيامٍ، يَتَنزّلُ هذا المطرُ . . .
الشجرُ الأجردُ يلبسُ ثوباً أسودَ/ أخضرَ،
حتى اسمُ الشارعِ في اللوحةِ يمحوهُ الطحلبُ؛
ماءٌ في القرميدِ
وشمسٌ في المخطوطاتِ وفي كتبِ اللغةِ . . .
الليلةَ زارتني أرواحٌ إغريقيّاتٌ:
قُمْ!
وانفضْ عنكَ دثارَكَ . . .
واحملْ في التيهِ المائيّ، عصاكَ
اركضْ!
. . . .
. . . .
. . . .
ثمَّتَ، في ذاك المَرْجِ، مرايا ذائبةٌ
وفِراءٌ
وخيولٌ ترعى أعشابَ القاعِ؛

اركضْ!
سوف ترى يوماً ما
ـ حتى لو كانت رَجْما ـ
نارَ الحطّابينَ. . .
اركضْ!

لندن، ٢٠/ ١/ ٢٠٠٣

رقصةُ الفالاشا

نحن فالاشا
والقرنُ الواحدُ والعشرونْ
سيكونُ لنا
نحن، ذوي الصّلعةِ والعُثْنونْ

نحن فالاشا
نضربُ في الأرضِ: نغنّي حيناً
نفتحُ دكاناً حيناً
ونبيعُ النفسَ وأوراقَ التينْ. . .

نحن فالاشا
والكونُ بضائعُ
نحن بضائعُ
لا فرقَ لدينا إنْ بِعنا بلداً
أو صرنا في منزلِ ضاحيةٍ قَوّادينْ

نحن فالاشا
لا أرضَ لنا، لا عِرضَ
ولكنّا نسمعُ عن أجدادٍ وتماثيلَ
وعن بلدٍ بين النهرينْ. . .

نحن فالاشا
والأيامُ الآنَ لنا:
الريحُ مواتيةٌ. . .
من أرصفة نيويورك إلى الأشجار بشرقيّ الصينْ

الريحُ مواتيةٌ
سنكون قباطنةً
أو غسّالي خِرَقٍ ودفاترَ
في سفنِ النخّاسينْ

نحن فالاشا
نسكرُ في حانِ الأمواتِ
ونسكنُ في خانِ السُّعلاةِ
ولا نعرفُ عَكّةَ من مكّةَ. . .
لكنّا سنصيرُ عراقيين!

لندن، ٢٣/ ١/ ٢٠٠٣

طبيعةٌ صامتةٌ

الشجرُ الأجردُ صارَ تماثيلَ شجرْ
حَجراً يتشكّلُ تحتَ سماواتٍ هابطةٍ
يهتزُّ، وئيداً، في الريحِ
ليعلنَ عن أغصانٍ كانتْ أغصاناً. . .
أو يعلنَ عن أنفُسنا في الغرف العليا.
ثمَّتَ موسيقى؛
في الموسيقى يسري النُّسغُ وئيداً
سريّاً،
منسرباً
من ركن الغرفةِ، نحو زجاجِ النافذةِ. . .
الموسيقى
تتشبّثُ بالقرميدِ
وبالسقفِ
وبالغيمِ الهابطِ. . .
. . . .
. . . .
. . . .

مَن منحَ الأرضَ فُجاءتَها؟
من منحَ الأحجارَ غصوناً خُضراً
من زيّنَ نافذتي بالنبتِ المتسلِّقِ
في لحظةْ؟

لندن، ٢٦/ ١/ ٢٠٠٣

الأسماك

منذ يومينِ، وهذا الثلجُ يهوي، هادئاً، منتفشاً كالريشِ
لم أعرفْ لماذا هبطَ الطيرُ من الأغصانِ
كي ينْقرَ في ثلج الطريقِ. . .
اللوحةُ؟
الأسودُ والأبيضُ. . .
أمْ أنّ نثيرَ الحَبِّ تحت الثلجِ؟
. . . .
. . . .
. . . .
أيّانَ تطلُّ الشمسُ؟
كانت نبتةُ المنزلِ في الركنِ تُدَنّي رأسَها
نحوَ الزجاجِ؛
الغابةُ السوداءُ في البُعدِ،
وفي البعدِ البحيراتُ التي تَزْرَقُّ تحت البردِ أيضاً. . .
كلُّ شيءٍ ساكنٌ
لكنّ في مضطرَبِ القاعِ
وفي الأعماقِ
أسماكَ الذهبْ!

لندن، ١/ ٢/ ٢٠٠٣

واقعيّة

الخيولْ
ترتعي في الثلجِ. . .
أحياناً تطلُّ الشمسُ لوناً بارداً
يدْفأُ في الثلجِ،
وأحياناً ترى أبعدَ من منفسَحِ الغابِ، البحيراتِ
وسِربَ الوزِّ
والسنجابَ
والطيرَ
كأنّ الكونَ قد رُتِّبَ كوناً هذه اللحظةَ. . .
. . . .
. . . .
. . . .
أنتَ، الآنَ، لن تسمعَ ما تسمعُهُ إذ يُطْبِقُ الليلُ
وتأوي الخيلُ،
أنت الآنَ في الصورةِ؛
فاهدأْ
قبلَ أن تنْقضَّ في كابوسكَ الليليّ تلك الطائرات.

لندن، ٤/ ٢/ ٢٠٠٣

نبضٌ أبيضُ

جاءنا، في غفلةٍ من قطَراتِ المطرِ الأولى، نَديفُ الثلجِ. . .
قرصٌ أشهبُ استخفى
وما كان سحاباً صار صحراءَ من الماءِ
ولوناً للسماءِ،
الريحُ هبّتْ فجأةً
والثلجُ، في الريحِ، يُذَرِّيها هنا، أو ههنا
حلَّقَ طيرٌ واحدٌ من آخرِ المبنى
خفيفاً
عَجِلاً
ضخْمَ الجناحَينِ. . .
لماذا أقفرتْ ساحتُنا؟
كانت زهورُ الثلجِ قطناً، ياسميناً، نعمةً سابغةً
تصبغُ هذي الأرضَ باللونِ الذي ليس له لونٌ؛
لماذا أقفرتْ ساحتُنا؟
. . . .
. . . .
. . . .

لكنْ، سأبقى، أنا، في الساحةِ:
شَعري الثلجُ
والسترةُ (جِلْدٌ أسودُ) الثلجُ؛
الممرّاتُ هي الثلجُ...
سلاماً، أيها الثابتُ في الساحةِ
يا ظلَّ الغريبْ...

لندن، ٤/ ٢/ ٢٠٠٣

خدَر

الأناملُ نائمةٌ، وحدَها، في قماش الأريكةِ
لا نبضَ في القدمينِ:
الشمالُ معطّلةٌ كاملاً
واليمينُ بها شِبْهُ وخْزٍ...
وعيناي لا تَطْرُفانِ؛
هل البردُ غلغلَ بين العروقِ وما حولَها الثلجَ؟
أهي الرطوبةُ؟
أمْ أنّ أغنيةَ العمرِ تهدأُ؟
....
....
....
أَطْرِقْ قليلاً، إذاً
وانتبِهْ لزخارفِ هذا البساطِ....
النعاسُ يهدهدُ جفنيكَ،
لا تبتئسْ
فالنعاسُ سيأتي على ظُلُماتِ النعاس!

لندن، ١٠/ ٢/ ٢٠٠٣

منطقُ الطَّيْطَوَى(*)

حينَ قُلْنا: «بَعُدْنا عن النخلِ...»، كانت بحارٌ تصفِّقُ بالطيرِ والموجِ؛ كانت سماءٌ سماويّةٌ تحتَ أهدابِنا. لن يكونَ السبيلُ إلى حانةِ الشاطئِ، المستحيلَ. القميصُ الذي كان يخفقُ في الريحِ بَيْرَقُنا ذو النجومِ. اقترَبْنا من الوهمِ حتى لمسْنا الرواقَ وراووقَهُ، بل فرشْنا بساطَ السواقي لنهنأ بالساقيةْ.

ليست الأرضُ عادلةً، فلْنكُنْ مع أسئلةِ البحرِ. في الليلِ نسري،
وفي الفجرِ نلقي المراسي. المرافئُ
ما زالَ فيها الندى، والمقاهي تَبَرَّجُ مزهوّةً بثيابٍ من السمكِ
المتواثبِ والشّبَكِ. الطُّحلُبُ الحيُّ
ما زال حيّاً على الصخرِ، والكأسُ قهوتُها بالكحولِ. وفي البُعدِ،
في غَبَشٍ من رذاذٍ تلوحُ
زوارقُ صيدٍ، وفي القُربِ قُبّعةٌ طافيةْ.
نحن لم نألفِ البحرَ. تلك البراري تُلَوِّحُ في دمنا كالمناديلِ. في
هدأةِ النومِ تصحو لتسكنَ أحلامَنا،

(*) طائر الطيطوى (الطَطْوة بالدارجة العراقية)، يطلق صيحته منذراً بالرحيل: شيلوا... شيلوا!

كي تقولَ: إلى أينَ هذا الفرارُ؟ ومثلَ الفُجاءةِ نلمحُ قافلةً من جِمالٍ
تسيرُ على الماءِ، نسمعُ جرْسَ الجلاجلِ
لكننا سوف نأوي إلى هدأةِ الوهمِ، ثم نَلُوْثُ المُلاءةَ مثلَ العمامةِ.
بحّارةٌ بعمائمَ نحنُ. حُداةٌ
على البحرِ. زاويةٌ قاسيةْ.

يا إله الضواحي، ادَّخرتَ لنا منطقَ الطّيطوى، صيحةَ الطيرِ: شِيلوا!
لماذا تصيرُ المدائنُ في لحظةٍ غيمةً؟
يا إله الضواحي، أمستكثَرٌ أن يكون لنا منزلٌ؟ أنت تمنحُ حتى الأوابدَ حقَّ النعاسِ إذا أطبقَ الليلُ، تمنحُ حتى النباتَ السُّجُوَّ، العصافيرَ هدأةَ غَيْضتِها في الأصيلِ المبارَكِ. يا والدِي، يا إلهَ الضواحي، التفتْ؛ أنت لن تخطئَ الناحيةْ.
نحن صرنا شيوخاً، وأحفادُنا يَدْرجون، على الثلج حيناً، على الرمل حيناً؛ وأبناؤنا يُقتَلون. المعاركُ خاسرةٌ يا إلهي... ألمْ تستطعْ منعَها؟ أنت أنت القديرُ على كل شيءٍ، فهل نحن خارج قدرتكَ؟ اليومَ أمرٌ، وفي الغدِ أمرٌ، وبعدَ غدٍ... هل تقومُ الصلاةُ إذاً؟ أنا في المنزل الآنَ، في القرية الإنجليزيةِ. الثلجُ يسقطُ، والقطُّ يأوي، وخمريَ في الخابيةْ.

كانت الأرضُ بيتاً لنا (نحن أبناؤها). قيلَ: من يحرثِ الأرضَ ينعمْ بها. كما حرثنا إلى أن تقَرَّحَ منّا الأديمُ،
وكم ضاقت الأرضُ! رُبّتَما فرَّ ذاك الملاكُ، وربّتما قنِعتْ بالصلاةِ

الخلائقُ. كانت قرانا على الماءِ. أكواخُنا من جريدٍ وطينٍ. وأثوابُنا من غليظِ النسيجِ. هي الأرضُ. لكنّ أصواتنا في أقاصي الغناءِ، وقاماتنا عاليةْ.

هل تعودُ لنا الأرضُ؟ قُلْ: إننا العائدونَ إلى الأرضِ. نخلُ السماوةِ طَرّتْهُ سمراءُ. سمراءُ! سمراءُ! يا نمجمةً

في الأعالي: أحبُّكِ سمراء. إني هنا، في الضواحي الغريباتِ. لا منزلي منزلي. ليس أهلي همو الأهلَ. أطبِقْ إذاً

يا مساءُ، ويا بردُ غلغِلْ حُبَيباتِ ثلجِكَ تحتَ العظامِ. المدينةُ ترسلُ أضواءَها من بعيدٍ. سلامٌ لقنديلنا في الظلامِ. السلامُ على مَن يردُّ السلام...

لندن، ٢١/ ٢/ ٢٠٠٣

نشيدٌ شخصيٌّ

أهو العراقُ؟
مباركٌ مَن قالَ إني أعرفُ الطُّرقَ التي تُفْضي إليهِ
مباركٌ من تمتمتْ شفتاهُ أربعةَ الحروفِ:
«عراقُ، عراقُ، ليس سوى عراقٍ». . .
سوف تنقَضُّ الصواريخُ البعيدةُ
سوفَ يَدهمُنا الجنودُ مدجّجِينَ
وسوف تنهارُ المنائرُ والمنازلُ
سوف يهوي النخلُ، منقصفاً؛ وسوف تضيقُ بالجثثِ التي تطفو ضفافُ البحرِ والأنهارِ
سوف نرى، لُماماً، «ساحةَ التحريرِ»، في كتُبِ المراثي والتصاويرِ. . .
المطاعمُ والفنادقُ:
ماكدونالد Mc Donald
دجاج كنتاكي KFC
وهوليداي إنْ Holiday Inn
سوف تكون خارطةَ الطريقِ، وبيتَنا في جنّة المأوى،

وسوف نكون غرقى
مثلَ إسمكَ يا عراقُ
«عراقُ، عراقُ، ليس سوى عراق. . .»

لندن، ١٥/٣/٢٠٠٣

الإحساس الأول

بين الشجرِ المتحفِّزِ، والمطرِ المختبِئِ، الريحُ تدورُ
الريحُ تدورُ تدورُ تدورُ
الريح تدور تدورُ
الريحُ تدورُ
الريحُ . . .
الأغصانُ معرّاةٌ، تُنبِتُ أسلاكاً وهسيساً، وتُسِفُّ علي السقفِ؛
اصطفقتْ أجنحةٌ، بضعَ دقائقَ
ثم هوتْ غرباً؛
من أين تسلّلَ ضوءُ الأرضِ إليَّ، هنا، في الغرفةِ؟
دَوحٌ وشميمُ ترابٍ،
ونديفٌ من زغَبٍ أبيضَ. . .
في الساحةِ
حولَ المصطبةِ، الريحُ تدور
الريحُ تدور تدور تدور
الريح تدور تدور
الريح تدور
الريح . . .

لندن، ٩/ ٣/ ٢٠٠٣

الخَوَنة

تحتَ سماءٍ ذاتِ نجومٍ
أحصاها لورنسُ العربِ، الليلةَ، واحدةً واحدةً، حتى نامَ
على بضعِ زرابيٍّ، وُضِعَتْ واحدةً فوقَ الأخرى
(تعرفُ أن الرملَ تقيمُ بهِ حيّاتٌ وعقاربُ). . .
أبحَرَ لورنسُ، عميقاً، في الحُلْمِ:
وكان قطارٌ عثمانيٌّ/ ألمانيٌّ يهدرُ بين اسطنبولَ ومكّةَ
كان قطارٌ عثمانيٌّ/ ألمانيٌّ يهدرُ، فعلاً، بين اسطنبولَ ومكةَ. . .
فكّرَ لورنسُ (الجاسوسُ يفكرُ حتى في الحُلْمِ):
سأستدعي فجراً، عملائي السبعةَ
أعمدةَ الحكمةِ (في ما بَعدُ)
وسوف أقولُ لهم:
ستكون دمشقُ لكم، أو بغدادُ
علينا أن نقطعَ تلك السكّةَ بين اسطنبولَ ومكّةَ. . .
. . . .
. . . .
. . . .

واليومَ
وفي آخرِ شهرِ شباطَ
من القرن الواحدِ والعشرينَ
يقلِّبُ لورنسُ، البصرَ . . .
الصحراءُ هي الصحراءُ
وأعمدةُ الحكمةِ ما زالوا السبعةَ
والسكّةُ مثقلةٌ بالألغام .

لندن، ١٩/ ٢/ ٢٠٠٣

الرعد

في مساءٍ مثلِ هذا، أشتهي أن أسمعَ الرعدَ. . .
السماواتُ التي تهبطُ
والبردُ
وهذا السُّرخُسُ الرطْبُ؛
لقد مَرَّ على مُنْفسَحِ الأفْقِ، سريعاً، آخرُ الطيرِ
وفي الساحة تشتدّ الخطوطُ البيضُ (أعني بين سيّاراتنا) في لمعةِ الفُسفورِ
والهدأةُ!
أحياناً، كما في الحُلمِ، يأتيني هديرٌ. . .
(أهو من طائرةٍ؟)
ثمّتَ شيءٌ لا يُرى، لكنه يُسمَعُ، مثلَ الخطفةِ الأولى من المُدْيةِ لِصْقَ القلبِ؛
مثلَ الرعدِ في اللوحةِ. . .
. . . .
. . . .
. . . .

كان النخلُ في البصرةِ يهتزُّ
وكانت طائراتٌ تعبرُ اللوحةَ، كالبرقِ
وكان الرعدُ يهوي في دمي مثل الرماد. . .

لندن، ١١/٣/٢٠٠٣

تلك البلاد

في الطين بضعةُ أكواخٍ
ومئذنةٌ ليستْ تُرى في ضفيرِ السعْفِ
والقصبِ . . .
إني عرفتُ طريقي نحوَها، خطأً بين الخرائطِ
والأسفارِ
والكتبِ؛
كم كنتُ حتى مع التذكارِ أُنكِرُها
لطولِ ما أنكرَتْني . . .
. . . .
. . . .
. . . .
والآنَ، ماذا سأصنعُ بها؟ أين أُسْكِنُها في هذا الليلِ البلْقع؟
ألن تغضبَ عليَّ إن سألتُها: من أنتِ؟ ألن تشعرَ بالحرجِ إنْ عرّيتُها؟
سأقولُ لها: كنتُ طليقَ اليدينِ قبلَ أن تنحدري عليّ. لكني هذه الليلةَ مُطَوِّقُكِ. أنا أحبُّكِ. لا تقتليني بعد أن انتظرتُكِ طويلاً في فراري.

يا بلاداً لا تُسمّى
يا بلاداً موجةً
حُقّاً من الزئبقِ
طاعوناً
وصبحاً ياسميناً. . .
أَمهِليني أتقرّى أيَّ اسمٍ سأسمِّي، مرةً، تلك البلاد. . .

لندن، ١١/٣/٢٠٠٣

بِيزَنْطَة

«مهداة إلى قسطنطين كافافي»

كان الحكماءُ يعودون إلى ساحتهم قربَ المرفأِ
(أعني باحةَ حانِ سِفِرْيادس). . .
الوقتُ ضحىً
والحكماءُ يعودون إلى الساحةِ كلَّ ضحىً؛
أحياناً يتخلّفُ منهم أحدٌ أو اثنانِ
(لموتٍ أو سفرٍ)
لكنّ الجلسةَ تُعقَدُ
فالحكماءُ لديهم ـ طبعاً ـ ما يَشْغَلُهم،
وأهالي بيزنطةَ مرتاحون لأنّ لديهم حكماءَ الساحةِ منذ سنينٍ
وسنينٍ. . .
. . . .
. . . .
. . . .
والحكماءُ يديرون الظَّهرَ عن المرفأِ، متّكئينَ؛
مصاطبُهم من خيرِ رخامٍ أبيضَ
أثوابُهمو من كتّانٍ أبيضَ

أمّا خمرُ سفريادس. . .
والناسُ هنا (أعني في بيزنطةَ) ينتظرون نهايةَ ما يتفكّرُ فيه الحكماءُ
الناسُ هنا ينتظرون
وينتظرون. . .
هل الفرخةُ من تلك البيضةِ
أم أنّ البيضةَ من تلك الفرخةِ؟
كان الناسُ، سنيناً، ينتظرون. . .
. . . .
. . . .
. . . .
في المرفأِ
في الغبَشِ المُدّثِّرِ شبهَ ضبابٍ
كان السلطانُ محمدٌ الفاتحُ، يُزْجي، في البوغازِ، سفائنَهُ،
كانت بيزنطةُ نائمةً
أمّا الحكماءُ فلم يصلوا الساحةَ بعدُ.

لندن، ١٤/ ٣/ ٢٠٠٣

عَلَمٌ أحمر

كم دوّخْنا العالَمَ
حتى دوّخَنا، الآنَ، العالَمُ.
نحن، كما قيلَ، حُثالتُهُ. . .
لكنْ نحن الثُّفْلُ
ونحن ذوو الحَدَقاتِ الواسعةِ
المرتعشون من البردِ
الضاوونَ
لصوصُ الخبزةِ والتمرةِ. . .
نحن الساعون إلى الهيجاء بغير سلاحٍ
نحن ذوو الأسلحةِ المطْويّةِ
نحن ذوو الأسئلةِ الأولى
نحن الطين
ونحن ورودُ اليقطين
ومِلْحُ الماءِ
وماءُ الملحِ
ونحنُ:
إلخ. . .

. . . .

. . . .

. . . .

أمّا الآنَ، وقد ألححْتَ طويلاً، أن تعرفَنا. . .

الآنَ

اخْتَرْ عَلَماً، من بينِ ثلاثةِ أعلامٍ:

علَمٍ أبيضْ

علمٍ أسودْ

علَمٍ أحمرْ. . .

لندن، ١٧/ ٢/ ٢٠٠٣

المحتويات